Arab Psy Tourath

1 2013

إصدارات لجنة البحث و الدراسة في التراث النفسي

قراءات في التراث النفسي العربإسلامي

عدد 1

الحكيم الترمذي
و مدرسته في تحليل النفس الانسانية

د ادريس عبد السلام شاهدي الوزاني

2013

إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية

عـــــــدد 1

الحكيم الترمذي

و محرسته في تحليل النفس الإنسانية

د.ادريس عبد السلام شاهدي الوزاني

الفهـــــــــرس

1- مقتطفات	4
2- بين يدي الحكيم الترمذي	22
3- جذور المدرسة السلوكية و تطورها	28
أ- توطئة	28
ب- السلوكية الوضعية و تطورها	28
4- علم السلوك أو علم التزكية	32
أ- تمهيد	32
ب- علم السلوك عند الحكيم الترمذي	33
~ تعريف عام	33
~ وقفة مع مصطلح الهوى	35
~ عالم القلب	37
~ الأبعاد النفسية للرياضة النفسية	41
5- ختاما بإيجاز	47

مقتطفات

عالم جليل لم يُعط بعدُ حقه من الدرس و التحليل من قبل المتخصصين في علم النفس، عالم شذَّ عن قاعدة المألوف و خالف بل قاوم ركب التقليد الجامد غير هياب ولا وجِل

فهي تحاليل نفسية عالية الجودة و الدقة، و هي في نفس الوقت اعتراف لخالق الكون بنعمة الإيجاد ،و هي أيضا تفاصيل دقيقة لكيفية عروج هذا الإنسان نحو خالقه متدبرا و مستوعبا لحقيقة الرسالة التي من أجلها وُجِد أصلا

فهي إذاً رحلة عبر العبارات الترمذية الممزوجة بدماء المجاهدات المضنية، و الممحصة لنصوص الكتاب و السنة

يفصل أصول الرياضة النفسية و هي المجاهدة،و أثناء هذا التفصيل تظهر لنا معالم مدرسته في تحليل النفس الإنسانية..،مرتكزه الآية الكريمة:" و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا."(العنكبوت 69)

فهي مبادىء لمدرسة في علم النفس تنطلق من عالم الإيمان، و هو ما أود أن أطلق عليه "علم النفس المعرفي الإيماني" ،

فهو يكاد يتوقف عند كل آية و كل حديث ليكتشف ما وراء النص أو ما يحمل النص من معان لا تظهر لأول وهلة، وهذا الذي دفعه للبحث المضني عن الروابط الخفية بين النصوص الشرعية الصحيحة و متعلقاتها السلوكية

" مخافة الله تعالى هي التي ألهمت عن الأسباب حتى صارت رأس الحكم و هي تعلق القلب بمشيئة الله، و لما صار إلى المشيئة انبهمت عليه الأمور

فإنه يعلم أنه شاء فخلقه، و لا يعلم أنه لماذا خلقه، فظهر له بعض المشيئة و خفي عليه شأن آخر من مشيئته وأقلقه وألهاه و أذهله عن النفس و عن دنياه، فلما زايلته نفسه انشرح صدره و اتسع في الحكمة و الله أحكم"

تميز بغوصه في المعاني و بما يسميه "غور الأمور"، و أثناء غوصه هذا يتوصل إلى استنتاجات تتعلق بعلم السلوك و تمثل في حقيقتها مدرسة في علم النفس ذات منحى سلوكي معرفي..

" اقتضى العلماء الأداء و تبليغ العلم، فلو كان اللازم أن يؤدوا تلك الألفاظ التي بلغت أسماعهم بأعيانها بلا زيادة و لا نقصان و لا تقديم و لا تأخير لكانوا يستودعونها الصحف

و إنما تعرف و تنكر العقول التي لها إلى الله سبيل يصل إلى الله، و نور الله سراجه.."

فإذا عرض في الصدر ذكر شيء هو حق و على الحق نور حالت الظلمة بين نور الحق و نور القلب فلم يمتزجا و لم يعرف القلب ذلك الحق فصاحبه في حيرة

في الأصل الرابع و الأربعين رواية عن النبي صلى الله عليه و سلم

" إذا حدثتم عني بحديث تعرفونه و لا تنكرونه قلته أو لم أقله فصدقوا به، و إني أقول ما يعرف و لا ينكر، و إذا حدثتم عني بحديث تنكرونه و لا تعرفونه فكذبوا به فإني لا أقول ما ينكر و لا يعرف

يفصل الترمذي علاقة إشراق وظيفة العقل المؤهلة لهذا الاستنباط بدرجة صفاء القلب، فعلاوة على الأسس النفسية نستشف منحاه في تقعيد أصول الاجتهاد و من يحق لهم ذلك

حق الأمة على هؤلاء الراسخين في العلم توضيح مثل هذه الأسرار اللازمة لعملية التأصيل المنشودة، و من حقنا كأخصائيين في علم النفس و في علم الاجتماع و سائر الفنون أن يكون لنا إلمام بهذه المقاصد أو على الأقل بأهمّها

من حقنا بل من واجبنا أن نثير هذه الأسئلة الجوهرية، فكلنا في مركب واحد، ولنستحضر جميعا حديث السفينة!!

فمن هذا المنبر العلمي الشامخ أدعو الهمم العالية الراسخة في العلم من سائر الفنون حديثا و فقها و تفسيرا و علم مقاصد،و خصوصا المؤثرة في الحركة العلمية و التي لها علاقة بموضوع التأصيل أن يلجوا حلبة النقاش هذه و يُنوِّرُوا الباحثين في مجال علم النفس و علم الاجتماع فيما لابد منه لفهم روح الدين

رحم الله الإمام الشافعي و مقولته المنصفة والموفقة و الجامعة للأمة:" رأيي صحيح يحتمل الخطإ ،و رأي غيري خطأ يحتمل الصواب"....

المدرسة الترمذية هي بحق أهم الشرارات الأولى للمدرسة السلوكية المعرفية تاريخيا

لابد أن يطلع الممارسون للعلاج النفسي السلوكي المعرفي على تحاليل الحكيم الترمذي خصوصا من يمارسون منهم فنياتهم في مجتمع مسلم

وكان " أليس ألبرت " صاحب مدرسة العلاج العقلاني الانفعالي أبرز الوجوه ، حيث أوضح بان الاضطرابات النفسية هي ثمرة للتفكير غير المنطقي واعتناق أفكار ومعتقدات غير عقلانية

السلوكية كاتجاه في الحقل النفسي انتشرت كردّ فعل عنيف ضد التفسير التحليلي النفسي الفرويدي

يرى الباحثون بأنّ المعالج النفسي الناجح هو الذي يتوصل لتشغيل البرامج العقلية الداخلية " بنقره " على بعض المؤشرات البارزة على " الشاشة " فتنطلق العمليات بتلقائية ، وتفتح النوافذ والتي تعتبر مفاتيح أو انطلاقات

التفسير السلوكي البحت أو الراديكالي أغفل كل العمليات الداخلية وكل طاقة ابتكاريه أو خصوصية للإنسان ، نتج عن هذا الضيق الفكري والإختزال الحيواني نشأة تيار السلوكية المعرفية والذي أقرّ بوجود عمليات معرفية كوسيط بين المثير والإجابة

الإنسان في الحقيقة يتميز عن سائر المخلوقات بقدرته على التحليق وتجاوز بعده الذاتي self- (transcendance)، وهنا يكمن الاختلاف الجوهري بين السلوكية المعرفية وبين النظرة السلوكية الإسلامية بشقيها الإدراكي المعرفي والعملي التطبيقي

السلوكية المعرفية لا خبر لها عن الأشواق الروحية العليا، ، تعتبرها من قبيل التجارب الإنسانية الشاذة أحيانا ، ولا تدخلها في حقل دراساتها للنفس الإنسانية كقواعد توَصّل لأسس العلاج النفسي

.

السلوكية المعرفية تهتم بالمنظور ، بعالم الشهادة ، بكل ما يهمّ السلوك البشري المشاهد الظاهر ودراسة حوافزه المختلفة ، لكن لن نسمع أبدا من السلوكيين أن سلوكا مُعيّنا دافعه الأساسي هو " الرغبة الأكيدة في إرضاء الله تعالى

السلوكية تحدثنا عن الاشتراط ونظرية التعلم كأساس لفهم السلوك البشري برمّته ، لا خبر لها – كما أسلفنا – عن هذه التطلعات الغيبية ، لا يهُمّها هذا الصّوت الغائر المقضّ للمضجع والمسهر الليالي ، هي تتجاهله وترى آنّه إنما يدخل في نطاق التجارب الإنسانية وليس له شأن بأحوال النفس و تقلباتها

نحن نرى أن الاضطرابات النفسية تشمل أيضا القلق الوجودي أو الفراغ الروحي....

رغم كل هذا البريق والحقّ اللذين توحي بهما السّلوكية المعرفية إلاّ أنّها أغفلت أهمّ عنصر في فهم السّلوك البشري عموما، وفهم سلوك الإنسان المؤمن بالله والمسلم على الخصوص :"الإيمان و مبدأ الألوهية

النظرة السلوكية الإسلامية على النقيض من السلوكية الوضعية تعتبر هذا الصوت الباطني الناشد للحقيقة والمتطلع لما وراء الأكمة هو الأساس في كل سلوك بشري

الإيمان يفسّر سلوك الإنسان ويمثّل المحرك الأساسي لتعديل هذا السلوك

النظرة السلوكية الإسلامية تشمل كل ما توصّل إليه علم النفس السلوكي المعرفي مع إضافة تصحيح النية و صقل الدوافع

ما اصطلح على تسميته بعلم السلوك أو علم التزكية هو القواعد المبثوثة في كتب السلف المتعلقة بتهذيب الأخلاق و بتمحيص الدوافع والبواعث أو ما يطلق عليه "طب القلوب " وكلها تربط السلوك الظاهر بالنية ، تفصّل أعمال القلوب وأعمال الجوارح

لم يخلُ عصر من العصور من مساهمات تطمح لتوضيح الغامض بالنسبة لأهل كل عصر متأقلمة مع معطيات العصر ومجيبة على ما جدّ من تساؤلات ونوازل لم يتمكن من سلف من البتّ فيها

في حين الترمذي ركز على نظرية المعرفة ، لأنك إذا عرفت الله وولج النور قلبك اختفت عنك أمراض النفس المختلفة تلقائيا!

علم السلوك يرمز إليه الحكيم الترمذي بـ" الرياضة و أدب النفس " ، وهي عنده : "فمن جهاده أن يروض نفسه فيؤدبها وأدب النفس أن يمنعها الحلال حتى لا تطمع في الحرام

الواقف عند الأوامر و النواهي يشعر أنه ممتثل و مسلّم و معترف لله تعالى بألوهيته و بربوبيته، يطمع في الدخول في معية المسلمين و ما يترتب على هذا الدخول من جزاء ووعد حسن يوم القيامة

"وهذا الذي وصفنا من تركك الشهوات وتجنبك اللذات ليس تحريم ما أحل الله لك ولكن تأديب لنفسك ورياضة لها"

أما المتطوع أو المرتاض لنفسه فهو يطمع في الترقي و في استيعاب و تذوق الأحوال الإيمانية التي يتكلم عنها الصالحون من السلف و الخلف

عالم المعرفة عند الحكيم الترمذي تدرجي و ارتقائي، فحين يبدأ المسلم في تجاوز عالم النفس هذا يحس بتحول في كيانه و في مداركه ، و إذا به قد ولج عالم القلب ثم عالم الروح و السر

فإذا تخلص العبد من سيطرة الشهوات على سلوكه ووجدانه، بفعل المجاهدة، يتخلص بالتالي من تلك الأخلاق السبعة تدريجياً، حتى يصفو باطنه، ويلج النور قلبه

هذه الأخلاق السبعة هي : الغفلة والشك والشرك والرغبة والرهبة والشهوة والغضب

"فكلما ازداد العبد معرفة وعلماً بربه عز وجل، استنار قلبه وصدره، وانتقص من الغفلة

أيّ فرح منطلقه تلبية الشهوات و إشباع رغبات الذات دون مراعاة متطلبات الشرع فهو فرح مذموم لأنه منطلق من النفس وراجع عليها بالنفع العاجل يفتقر لعنصر المراقبة

اما الفرح المحمود فهو فرح القلب معدن الإيمان و هو في النهاية فرح بتلبية نداء الحق في قلب العبد

"الهوى" مصطلح قرآني اعتمده الحكيم وانطلق منه ليقعّد أصولا نفيسة تتعلق بتحليل النفس الإنسانية

فالنفس إذا أطلق لها العنان في المباح تعلقت بالمتعة المترتبة عن مقارعة هذا المباح و بكل تأكيد غازلت مراكز المتعة بالدماغ مثلما يحصل للمدمنين

فمن صان قلبه عما تورد النفس عليه بقي قلبه مع الله عز وجل في جميع الأحوال، ومن لم يصن قلبه حتى أوردت النفس عليه أفراحها التي أورد عليها الهوى من باب النار، فقد صار وله القلب إلى الهوى

لكن نشير إلى أهمية صفة "الوله" المتعلقة بالقلب،يرى الحكيم بأن خاصية التعلق لدرجة الهيمان و التفاني و الولع هي من خصائص عالم القلب

القلب إذاً عبارة عن طاقة توجه ينتج عنها تعلق و ينتج عن هذا التعلق سلوك يسير في ركاب هذا التوجه

"لأن الإيمان في القلب، ولا يستنير في الصدر إلا حاطة غيوم الشهوات ورين الذنوب بالقلب في الصدر حتى إذا تاب العبد صقل قلبه بالتوبة

والرياضة عند الترمذي الحكيم : هي فطم النفس عن كل ما تهواه حتى تستقيم الشهوات على أمر الله ، وتلك هي مرتبة النفس المطمئنة

وهذا الصقل يستمر ويشتد كلما نزع العبد عن المعاصي والشهوات فيصير القلب حينئذ كالمرآة : "فإذا صار كالمرآة تراءت له الدنيا على هيئتها، والآخرة على هيئتها والملكوت "..

وانما الرياضة عنده علاج و "وسيلة" لبلوغ حالة راقية من الشفافية الروحية والصفاء القلبي والاطمئنان النفسي

وهذا هو اليقين و هو المعنى بدرجة الإحسان الواردة في حديث "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"..

"إن النفس اعتادت اللذة والشهوة والعمل بالهوى ، فكلما اشتد عليها فطم شيء ، فأقبل قبل ذلك الشيء حتى تفطمها عنه، حتى يصير قلبك حراً يألف مع الله عز وجل ببره ولطفه

أن الجهد ينبغي أن ينصب أولا على عالم النفس، و هي المرحلة الأولى في السير ، تليها مرحلة التحقق القلبي

الألفة هي درجة من الانسجام و التوافق و الرضى و التسليم ، هي حالة وجدانية و سلوك عملي ، هي همة عالية و إرادة نافذة و عزم لا ينثني ، هي إحساس بالراحة بعد بذل جهد شديد ، و هي استراحة المسافر بعد انتصاره على كل معوقات الطريق ، و هي بلوغ المنزل

فالمطلوب هو هذا البلوغ لا التعبير عنه ، لذلك يترك المشرع لكل سالك فرصة الاستمتاع إلى أقصى حد بثمرة سلوكه المضني ضمن علاقة تعبدية خالصة بينه و بين ربه يتحقق من خلالها بالسر من خلقه و بكل المعطيات الإيمانية التي انتقلت من طور التصديق العقلي الفكري التفكري إلى مرتبة التيقن القلبي و معانقة عالم الروح

فمن عجز عن الرياضة، فإنما يقبل أحكام الله تعالى ومشيئاته على حد التقوى بأركانه ، على ثقل من نفسه، وتنغيص وتكدير من عيشه، وجهد من قلبه

فهذه هي حالة المسلم العادي المستسلم لشهواته ورغباته، المتواكل، هو العاجز الذي ورد ذكره في الحديث: " الكيس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت ، و العاجز من أتبع نفسه هواها و تمنى على الله الأماني"....

و لا زلنا نتكلم عن المسلم الذي يفترض أن يقبل أحكام الله و مشيئته، بمعنى أن الضجر و القلق و ثقل النفس منبعها الصراع بين المستوى المعرفي و هو الإيمان و التسليم بشرع الله، و المستوى السلوكي المتذبذب في تطبيق هذه الأركان...

الثقل من النفس و الجهد من القلب يؤديان منطقيا إلى تنغيص و تكدير العيش، فالمسلم المخالف سيره لطريق الفطرة يتعرض لتناقض صريح بين المعطيات المعرفية الإيمانية و السلوكية

هذا التناقض هو الذي يجعله لا يستمرئ وجوده و دنياه و لا يستمتع بها كما يستمتع " مريد العاجلة "، بل على العكس تكون كل مكاسبه من هذا الدرب سببا لتنغيص عيشه، و هنا منطلق كل الانحرافات المزاجية و حالات القلق و الاكتئاب النفسيين.

ثمرة الرياضة النفسية أن يملك المسلم نفسه و يتحكم في مسارها، بخلاف من تقوده نفسه الأمارة و يستسلم لسلطانها الغريزي..

يبدو منطقيا أن الذي يمتنع عن المباح بكامل وعيه و إرادته يأنف و يتعفف بل و ينفر من الاقتراب من الحرام، هذا السلوك يقوي ذلك النوع من الإرادة التي تطمح للتطهر و التقرب إلى الله تعالى

كثيرا من الباحثين الذين يتوصلون لاستيعاب آلية من الآليات النفسية يسرعون إلى تعميمها مثلما ما حصل مع مدرسة التحليل النفسي، و من أهم ركائز المدرسة السلوكية المعرفية الحديثة توضيحها لأخطاء التفكير و من أهمها "التعميم الخاطئ"..

فإذا بلغ في منطقه مكاناً يصير ذلك الكلام عليه غيبة أو كذباً ملك نفسه فامتنع وتورع، لأن شهوة الكلام قد ماتت منه، فهو يتكلم لله عز وجل وابتغاء مرضاته

"فهناك يملك نفسه أن تقف على الحلال فلا تجاوزه....وسائر الجوارح السبع (وهي اللسان والسمع والبصر واليدان والرجلان والبطن والفرج) "

استعمال الإرادة الذاتية في مجال الرياضة النفسية يُرسّخ النتائج بحكم أن الانطلاقة نبعت من الإنسان ذاته، فهي تكتسب مشروعية قوية، و الثمرة الثانية هي التلقائية ، و حين يكون السلوك تلقائيا تنتفي عنه منطقيا كل أشكال الصراعات ، و بالتالي كل الاضطرابات النفسية المعهودة

" لأن القلب امتلأ بالأنوار ورأى شأنا عجيبا من عظمة الله عز وجل جلاله... فعندها يمد يده إلى ما أحل الله من الطعام والشراب واللباس والنكاح والاحتواء إلى ما قدر له من دنياه، فيقبله من ربه عز وجل على تدبيره الذي دبر له فإن أخذ أخذ بحق.."

يدخل المرتاض لنفسه بعد ذلك في عالم من المعاني هو عبارة عن سير معنوي خاص بالقلب ينفر من عالم المادة و يشق طريقه نحو الحقيقة الخالدة ، حقيقة الألوهية و الربوبية و سر الخلق و المآل ، حقيقة الإنسان و موقعه بالضبط وسط كل هذه المعطيات المرئية و غير المرئية ..

الفرق بين النظرة السلوكية الإسلامية و بين التيارات الوجودية التي تعتمد على التجربة المعاشة هنا و الآن، هو أن التجربة من منظور إسلامي تنطلق من أصول معرفية إيمانية و تخضع لإطار منهجي سلوكي يتجلى فيه استعمال الإرادة الذاتية من جهة، و يتوج بالوهب الإلهي من جهة ثانية، يربط الحقائق الدينية بأطوار النفس التي تتلمس حقيقة سيرها و عروجها

يفترض أن تصل النفس إلى مستوى من الإدراك يضمحل فيه الوعي المجزأ أو المنشطر بالأشياء، و النتيجة وعي كامل بالكيان أجمع تعبر من خلاله كل مكونات الإنسان النفسية و الوجدانية و السلوكية على نفس الحقيقة بلغة واحدة، فهو معنى واحد متعدد الروافد

فكأنّ هذا العاجز عن رياضة نفسه يبصر بحاسة خفية لديه هذا المحل من عظمة الله عز و جل ، و لا يتمكن من الوصول إليه لما ذكرنا من عدم صيانة قلبه عما تورد النفس عليه، فيكون في طور التمني ، في حين المرتاض لنفسه يسلك طريق التحقق

فمن صان قلبه عما تورد النفس عليه بقي قلبه مع الله عز وجل في جميع الأحوال، ومن لم يصن قلبه حتى أوردت النفس عليه أفراحها التي أورد عليها الهوى من باب النار، فقد صار وله القلب إلى الهوى

الظالم لنفسه هو الذي يستعمل أدواته الإيمانية انطلاقا من ذاتيته أو بالأحرى من تأليهه لذاته و قدراته جازما بأن الحقيقة لا يمكن أن تنبع إلا من ذاته

المسيرة التدرجية الارتقائية سلوكية أوّلاً إذ تهدف إلى التخلي عن بعض العادات أي السلوكيات ، ثم هي معرفية إذ ينتج عن هذا التخلي تغيير في الحالة الوجدانية و على الخصوص في المدارك أي المعارف

أول خطوة في طريق الوصول للحقيقة هي الإذعان لعظمته و التسليم له بالألوهية ، الثمن لكي يفوز العبد بكنز الإيمان و تذوق حلاوته " ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة "

المدارك و المعارف الناتجة عن رياضة النفس هي "مواهب ربانية"، و هذا لب الاختلاف بين الحكيم و المدرسة السلوكية المعرفية الوضعية

فبقدر ما يستهلك الإنسان طاقاته الباطنية و أدواته الإيمانية في اتجاهات كونية مخالفة لروح الفطرة بقصد التوصل للحقيقة في زعمه ، بقدر ما يكون هذا الاستهلاك دليلا على مقدار نزعته الذاتية و ميوله الإلحادية..

المدرسة الحكيمية ذات منطلق إيماني اعتقادي، و الاضطراب النفسي أو الكدر النفسي حسب روح هذه المدرسة هو من عدم انسجام سلوك المسلم مع متطلبات العبودية

والبعد السلوكي المعرفي عند الحكيم يشتمل على شقين:
_ الشق الأول سلوكي يتعلق بتغيير العادات
_ الشق الثاني معرفي ذوقي وجداني، وهو ما يشعر به المرتاض لنفسه من أحوال إيمانية من قوتها أنها تكشف الغطاء عن أحوال سابقة تتعلق بعالم النفس..

فهي مدرسة نفسية ذات منطلق إيماني، ترى بأن مجال الصحة النفسية يجب أن يركز على المنطلق الإيماني أوّلا ، تصحيح البداية، و هو ما يطلقون عليه "الباعث" أو "الوازع" أو "داعي الله" في قلب العبد، لابدّ أن يصحو و يلزم صاحبه على الدوام، إذ لو خبا وهجه توقف السير المعنوي و توقفت بالتالي مسيرة النموّ و الترقي الروحي

" فكلما ازداد العبد معرفة و علما بربه عز و جل، استنار قلبه و صدره، و انتقص من الغفلة و من هذه الخصال السبع حتى يمتلئ صدره من عظمة الله عز و جل و جلاله، فعندها كشف الغطاء و صار يقينا"

" إن الطرق شتى، و طريق الحق مفردة، و السالكون طريق الحق أفراد، و مع أن طريق الحق مفردة فإنه تختلف وجوهه باختلاف أحوال سالكيها من اعتدال المزاج و انحرافه، و ملازمة الباعث و قوة روحانيته و ضعفها، و استقامة همته و ميلها، و صحة توجهه و سقمه

2- بيـــــن يـــــدي الحكيـــــم الترمـــــــــذي

سوف نحلق بإذن الله في هذا البحث مع عالم جليل لم يُعط بعدُ حقه من الدرس و التحليل من قبل المتخصصين في علم النفس، عالم شدّ عن قاعدة المألوف و خالف بل قاوم ركب التقليد الجامد غير هياب ولا وجِل، تلقى العلم الشرعي من أفواه الرجال و لم يقتصر على النهل من الكتب ،ينفذ للروح التي تكمن وراء الآية أو الحديث, تكاد تحاليله تكون مقاصدية، يخيل للقارىء بأنه يسعى لترسيخ الإيمان بهذه النصوص و تأكيد مصدرها من حيث إنه مصدر مقدس لا يتطرق إليه الشك، و إذا حصل ارتباك و عدم فهم أو فهم مخالف للفطرة فذاك راجع بالنسبة لروح هذه المدرسة للإناء الذي استعمل أدوات للتحليل قاصرة عن إدراك المعنى العميق لهذه النصوص..

هي نظرة لعلم النفس من زاوية خاصة جدا، زاوية تاريخية، عودة إلى ما قبل إثني عشر قرنا، القرن الثالث الهجري،حيث كان هناك حديث عن الصحة و المرض النفسيين بأسلوب خاص غريب عن أقلام و كتابات المعاصرين، يتميز بعمق و بدقة يختلفان عن النمط الوصفي الغالب حاليا، فهي إذاً رحلة عبر العبارات الترمذية الممزوجة بدماء المجاهدات المضنية، و الممحصة لنصوص الكتاب و السنة، هي إذاً نافذة نطل من خلالها على تراث و عطاء بعض سلفنا الصالح تُذكر القارىء بهذه الحقبة التاريخية و بكيفية تعاملها مع قضايا النفس البشرية..

و الهدف من هذا البحث هو إبراز شخصية فذة و قوية من الذين سمت مداركهم و رقت تحاليلهم حين راموا استبطان أصول العقيدة، فكانت هذه الإشراقات قواعد جليلة و نفيسة لفهم حركية هذه النفس المعقدة، و أمثال الحكيم بتحليقاتهم يشعرون القارئ حتما بأن طبيعة هذا الدين حية نابضة جياشة، و يشعرونه على الخصوص بأن المنطلق و البداية هي نفسه القابعة بين جنبيه (داؤك فيك و دواؤك منك حسب ما أثر عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه)، يظهرون له جانب التشريف الذي يتميز به عن سائر المخلوقات، فهي تحاليل نفسية عالية الجودة و الدقة، و هي في نفس الوقت اعتراف لخالق الكون بنعمة الإيجاد ،و هي أيضا تفاصيل دقيقة لكيفية عروج هذا الإنسان نحو خالقه متدبرا و مستوعبا لحقيقة الرسالة التي من أجلها وُجِد أصلا،هذا ما نقصد بهذا البحث،أما المسائل الشرعية الخلافية فلها حيِّز آخر و أسلوب آخر،و كما يقال:"لكل مقام مقال"...

والإنسان حسب تحاليل الحكيم الترمذي إما أنه ينطلق من الهوى و الطبع ليلقي نظرة على من و ما حوله، وإما انطلاقه من قلبه معدن الإيمان و المعرفة الفطرية الأصلية، و إما من الروح المحلقة المتسامية الصافية من الشوائب، و يحصل بالتالي على علوم و مدارك مختلفة **حسب منطلقه..**

و يفصل الحكيم الترمذي كيفية التعرف على هذه المنطلقات و التي توضح في النهاية مسيرة الإنسان الإيمانية، التي هي حقيقة الرحلة الدنيوية و كيف تعامل معها الإنسان و بأي أدوات تعامل معها..

الحكيم الترمذي يفصل أصول الرياضة النفسية و هي المجاهدة،و أثناء هذا التفصيل تظهر لنا معالم مدرسته في تحليل النفس الإنسانية..،مرتكزه الآية الكريمة:" و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا."(العنكبوت69)

تحاليل الترمذي غايتها تذوق حقائق الإيمان العليا و الحياة على بصيرة، فهي مبادىء لمدرسة في علم النفس تنطلق من عالم الإيمان، و هو ما أود أن أطلق عليه "**علم النفس المعرفي الإيماني**" ،و يشمل كل الآليات النفسية الناتجة عن تفاعل مقومات متعددة من الكيان في نسق خاص يمزج المعرفي مع الوجداني مع السلوكي، متفاعلا في نفس الوقت مع البيولوجي و البيئي و الثقافي و الفلسفي التحليقي و المتسامي، فهي حقيقة الآدمية انطلاقا من نصوص يراها الحكيم الترمذي و كل باحث مسلم على أنها مقدسة لا يتطرق إليها الشك ، و تصلح أن تكون مصدرا موثوقا نؤصل من خلاله و نقارن به غيره من النصوص أو من الاجتهادات البشرية، و هو ما يمكن أن نرمز إليه بمعطيات الفطرة الإلهية، "

و الحكيم الترمذي هو قبل كل شيء عالم أصولي محدث، و هو غير المحدث أبو عيسى الترمذي صاحب السنن ،ترعرع في بيئة علمية، و درس على عدة شيوخ و مشهود له بالتبحر في العلم الشرعي، و تميز بغوصه في المقاصد و الأهداف، يعُدّهُ الأستاذ الدكتور أحمد الريسوني حامل لواء علم المقاصد في عصرنا أوّل من تكلم في علم المقاصد(أفادني حفظه الله بهذا مشافهة)، فهو يكاد يتوقف عند كل آية و كل حديث ليكتشف ما وراء النص أو ما يحمل النص من معان لا تظهر لأول وهلة، وهذا الذي دفعه للبحث المضني عن الروابط الخفية بين النصوص الشرعية الصحيحة و متعلقاتها السلوكية، و تآليف الحكيم تدل على ذلك، فهو يعمد في الغالب إلى جمع مجموعة من الآيات والأحاديث التي تصب في معنى من المعاني، و يكون هذا المعنى ذا بعد سلوكي معراجي، و لا أدل على ذلك من كتابه المشهور " نوادر الأصول"الذي جمع فيه 291 أصلا يطعم كل أصل بحديث نبوي شريف ، و يسترسل بعد ذلك في توضيح المقصد الأسنى للحديث و للاصل، يحسسك بأنك إذا حفظت الحديث دون أن تتفطن أو تستوعب القصد منه تكون قد ألممت بالشكل دون المخبر،كالذي يحمل رسالة عظيمة ذات أسرار منيفة لكنها مختومة و لم يتمكن من الاطلاع على مكنونها،يقول مثلا في الأصل 226 :" رأس الجكمة مخافة الله" :

" مخافة الله تعالى هي التي ألهمت عن الأسباب حتى صارت رأس الحكم و هي تعلق القلب بمشيئة الله، و لما صار إلى المشيئة انبهمت عليه الأمور، فإنه يعلم أنه شاء فخلقه، و لا يعلم أنه لماذا خلقه، فظهر له بعض المشيئة و خفي عليه شأن آخر من مشيئته وأقلقه وألهاه و أذهله عن النفس و عن دنياه، فلما زايلته نفسه انشرح صدره و اتسع في الحكمة و الله أحكم" (كتاب السلوك عند الحكيم الترمذي ص.44)

فالقارىء لهذه السطور يدرك عمق العبارات و مدلولها المقاصدي الغائي، فنحن أمام استكشاف لروح الحديث، و غالبية البشر و بالأخص من المؤمنين يدركون الجزء الأول من العبارة:" وهي أن الله تعالى شاء فخلقهم"، و قبل أن يخلقهم كانوا عدما محضا، إذا إيجادهم من عدم هو بمشيئة الخالق، لكن اكتشاف الحكمة من وجودهم ككيان متحرك فاعل متنوع الميول و السلوك، كالذي نراه أمام أعيننا كل يوم و كل لحظة فهذا الذي يقصد الترمذي بالشأن الآخر من المشيئة، أي الحكمة الخفية من خلق الخلق و من تنوعهم و اختلاف مشاربهم و أفعالهم، و يتميز عطاء الحكيم في هذا المضمار حين ربط خشية الله أو التوصل لخشية الله و مخافته وهي رأس الحكمة بعبارتين تبرزان حقيقة منهجه في تحليل النفس الإنسانية، بل و تبينان الأسس التي تتبني عليها مدرسته في ميدان علم النفس و العلاج النفسي، و هما:

1- "**فلما زايلته نفسه و دنياه**"

2- " **انشرح صدره و اتسع في الحكمة و الله أحكم**" .

فمزايلة النفس و الدنيا تؤديان إلى انشراح الصدر و اتساعه،و يظهر لنا هنا الجانب **التشخيصي و العلاجي** معا، و سوف نفصل لاحقا حين حديثنا عن الرياضة النفسية عند الحكيم الترمذي مقصوده من اتساع الصدر و انشراحه، غير أن العاملين في الحقل النفسي يدركون بداهة بأن انشراح الصدر و اتساعه ينافيان تلقائيا ضيق الصدر و الكتمة التي يحدثنا عنها كثير من مرتادي العيادة النفسية!..

أريد هنا أن ألفت النظر إلى ربط السلوكي بالمعرفي في منهج الحكيم الترمذي واضعا في الحقيقة إحدى أهم الأسس التاريخية للمدرسة السلوكية المعرفية بعد المدرسة اليونانية علما بأنه لا يظهر من خلال استقراء النصوص التاريخية أي إشارة أو تأثر للحكيم الترمذي بهذه المدرسة ، و المدرسة السلوكية المعرفية عرفت ازدهارا منقطع النظير في زمننا الحالي، وما ذاك إلا لأنها اعتمدت أصول الفطرة في تحاليلها، فمن حيث الأعمدة الشكلية للمدرسة السلوكية المعرفية كأنهم استلهموا أسس المدرسة الحكيمية الترمذية، لكن الاختلاف في المقاصد و الغايات بل و في المنطلقات، و هذا الذي سنوضحه في الصفحات المقبلة إن شاء الله تعالى.

الحكيم الترمذي تميز بغوصه في المعاني و بما يسميه "**غور الأمور**"، و أثناء غوصه هذا يتوصل إلى استنتاجات تتعلق بعلم السلوك و تمثل في حقيقتها مدرسة في علم النفس ذات منحى سلوكي معرفي..

و للننظر إليه و هو يتجاوز الحرفية في موضوع خطير و هو الحديث النبوي الشريف إذ يُعدّ من القائلين برواية الحديث بالمعنى، يقول معلقا على أصله الثامن و الستين و الماتين:" قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :" نضر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه كما سمعه منا فإنه رب مبلغ هوأوعى له من سامع"، يقول الترمذي:

" اقتضى العلماء الأداء و تبليغ العلم، فلو كان اللازم أن يؤدوا تلك الألفاظ التي بلغت أسماعهم بأعيانها بلا زيادة و لا نقصان و لا تقديم و لا تأخير لكانوا يستودعونها الصحف، كما فعل رسول الله صلى الله عليه و سلم بالقرآن ، فكان إذا نزل الوحي دعا الكاتب فكتبه، مع ما تكفل الله له من جمعه و قرآنه...، و لو كانت هذه الأحاديث سبيلها هكذا لكتبها أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم، فهل جاءنا عن أحد منهم أنه فعل ذلك، و سائر الأخبار أنهم تلقونها منه حفظا و أدّوها حفظا، فكانوا يقدمون و يؤخرون و تختلف ألفاظ الرواية فيما لا يتغير معناه فلا ينكر ذلك منهم و لا يرون بذلك بأسا."(علم السلوك عند الحكيم الترمذي ص.)

بل هو يذهب بعيدا حين يورد حديثا للنبي صلى اله عليه و سلم يتعلق بعلم الدراية في علم الحديث،يقول في الأصل الرابع و الأربعين رواية عن النبي صلى اله عليه و سلم

" إذا حدثتم عني بحديث تعرفونه و لا تنكرونه قلتُه أو لم أقله فصدقوا به،و إني أقول ما يعرف و لا ينكر، و إذا حدثتم عني بحديث تنكرونه و لا تعرفونه فكذبوا به فإني لا أقول ما ينكر و لا يعرف" (نوادر الأصول ص.59)

و *يعقب قائلا:*" فنقول :" من تكلم بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم بشيء من الحق و على سبيل الهدى فالرسول صلى الله عليه و سلم سابق إلى ذلك القول و إن لم يكن تكلم بذلك اللفظ الذي أتى به من بعده، فقد أتى صلى الله عليه و سلم بأصله مجملا، فلذلك قال فصدقوا به قلته أو لم أقله، إن لم أقله بذلك اللفظ الذي تُحُدِّث به عني فقد قلته إذ جئت بالأصل و الأصل مؤد عن الفرع..

فإذا كان الكلام معروفا عند المحققين غير منكر فهو قول الرسول صلى الله عليه و سلم، و إنما قال ذلك لأصحابه الذين قد عرّفهم بالحق، فإنما يعرف الحق المحق و هم أولوالألباب و البصائر، فأما المخلط المكب على شهوات الدنيا المحجوب عقله عن الله تعالى فليس هو المعني بهذا لأن صدره مظلم..و إنما تعرف و تنكر العقول التي لها إلى الله سبيل يصل إلى الله، و ،ونور الله سراجه.." (نوادر الأصول ص.61)،

وعندهم:

" المعروف من الكلام ما كان موافقا للكتاب و السنة"(مرقاة الوصول لحاشية نوادر الأصول ص.32)

بل هو حين يحلق في الحديث الذي رواه سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما

"دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة و الكذب ريبة"

يقول:

"وإنما صيّر رسول الله صلى الله عليه و سلم هذه الكلمة علامة لقلوب قد ملكت النفوس و خلت من وساوسها الصدور لا القلوب التي قد ملكتها نفوسها و شحنت بوساوسها صدورها."

إلى أن يقول:" و أما العامة فإنهم يحتاجون إلى النصوص و الآثار على ألسنة علماء الظاهر لما أدخل عليهم من آفة النفس و تخليطها فقد تراكمت على صدورهم سحائب تترى من حب الدنيا و حب الجاه و حب الثناء و حب الشهوات و فتن الدنيا **و رين الذنوب**، فإذا عرض في الصدر ذكر شيء هو حق و على **الحق نور** حالت الظلمة بين نور الحق و نور القلب فلم يمتزجا و لم يعرف القلب ذلك الحق فصاحبه في **حيرة**.."(نوادر الأصول ص.62-63)..و يقصد الحكيم بالنصوص و الآثار ما صح من الكتاب و السنة، و إذا كانت العامة مطالبة بالاقتداء بالعلماء نستنتج من باب أولى أن المحققين المشار إليهم لم يصلوا إلى درجة التحقيق إلا لما اعتمدوا نفس هذه النصوص ، يفصل الترمذي علاقة إشراق وظيفة العقل المؤهلة لهذا الاستنباط بدرجة صفاء القلب، فعلاوة على الأسس النفسية نستشف منحاه في تقعيد أصول الاجتهاد و من يحق لهم ذلك، و هذا المنحى سبب له عداوات كبيرة مع بعض معاصريه!

فهذه التفسيرات تمتاز بجرأة علمية و بتحررانعكسا على منهجيته في تحليل النفس الإنسانية موضوع بحثنا...

نحن إذاً أمام عالم محدث مشهود له بغزارة العلم و التمكن في علوم الشريعة، انتهج سبيل الغوص و التنقيب عن المعاني و المقاصد، و هو من علماء القرن الثالث الهجري من طبقة البخاري و أحد رواد الحركة العلمية الاجتهادية في إطارشريعة توصلوا بفهمهم و"بما وقر في قلوبهم" أن الله تعالى أراد لها الخلود و حكم بنسخها لما عداها من الملل و النحل فلابد أن تلائم كل زمان و مكان، ونحن لا نتطاول على علم الحديث و الذي له أصوله المحكمة و له أهله، لكن نود أن يفتينا في هذا الموضوع الراسخون في علم الحديث المجتهدون الورعون ، وهم أنفسهم يفرقون بين "المحدث" و الحافظ و الحاكم

وغيرها من المصطلحات، و كلها درجات في إتقان مادة الحديث من رواية و دراية، و كذا علاقة علم الحديث بالفقه و أصوله و مقاصد الشريعة،و خصوصا علم **علل** الحديث الذي يكاد يصل إلى درجة **الإلهام** من برز فيه من أمثال البيهقي و ابن أبي حاتم و أبي زرعة، يقول هذا الأخير :"علة الحديث سبب غامض خفي يقدح في صحة الحديث مع انّ الظاهر السلامة منه"(أفادني بهذا التعريف مشافهة و إملاء المتخصص في علم الحديث الأستاذ الدكتوررسلان محمود المصري حفظه الله)..

إذاً من كانت كل بضاعته قياس الظاهر على مثله حرفاً حرفاً كيف يصل إلى هذه العلة الخفية الغامضة؟؟، يقول **أبو حاتم الرازي**: «**مثل معرفةِ الحديثِ كمثل فصّ ثمنه مائة دينار وآخر مثله على لونه ثمنه عشرة دراهم**»، **قال: «وكما لا يتهيأ للناقدِ أن يخبر بسبب نقدهِ؛ فكذلك نحن رزقنا علماً لا يتهيأ لنا أن نخبر كيف علمنا بأنَّ هذا حديثٌ كذب، وأنّ هذا حديثٌ منكر إلا بما نعرفه**

، وقال الأوزاعيُّ: «كنا نسمعُ الحديثَ فنعرضه على أصحابنا كما نعرضُ الدرهمَ الزائفَ على الصيارفة؛ فما عرفوا أخذنا وما أنكروا تركنا ،

وقد رُوي نحو هذا المعنى عَن الإمام أحمد أيضاً وأنه قيل له: يا أبا عبد الله! تقولُ: هذا الحديثُ منكرٌ؛ فكيف علمتَ ولم تكتبْ الحديثَ كلَّه؟ قالَ: مثلنا كمثل ناقد العين لم تقع بيده العين كلها؛ فإذا وقع بيده الدينار يعلم بأنه جيّد، أو أنه رديء، وقال ابنُ مهدي: «معرفةُ الحديثِ إلهام (المنهج السليم في دراسة الحديث المعل د. علي بن عبد الله الصيّاح)(نقلا عن بحثه المنشور إلكترونيا)..

عبارة الأوزاعي :"...فما عرفوا عرفنا و ما أنكروا أنكرنا.."..ألا يوافق تماما العبارة النبوية:" تعرفونه و لا تنكرونه..؟"، و كل ما قام به الترمذي هو توضيحه لمن يحق لهم هذه المعرفة و هذا الإنكار،

و قد أفادني العالم المحقق الشاب المتخصص في علم الحديث الشيخ عدنان زهار حفظه الله بخصوص الحديث الوارد في الأصل الرابع و الأربعين تعليق الترمذي عليه بقوله:"وهو عندي معتبر محترم، خصوصا وأن المحدثين انفسهم يقولون بالإلهام في الكشف عن العلل فلم لا يقال بالإلهام في تصحيح ما ضعف والله المعين"

حق الأمة على هؤلاء الراسخين في العلم توضيح مثل هذه الأسرار اللازمة لعملية التأصيل المنشودة، و من حقنا كأخصائيين في علم النفس و في علم الاجتماع و سائر الفنون أن يكون لنا إلمام بهذه المقاصد أو على الأقل بأهمّها ، و من حقنا بل من واجبنا أن نثير هذه الأسئلة الجوهرية، فكلنا في مركب واحد، ولنستحضر جميعا حديث السفينة!!، فالذين في أعلى السفينة و هم هؤلاء الراسخون إذا لم يردّوا بل و يُفحموا المتطفلين على العلوم الشرعية و ينيروا الطريق لطلاب الحقيقة يوشك أن يغرق المركب بمن فيه!...

فمن هذا المنبر العلمي الشامخ أدعو الهمم العالية الراسخة في العلم من سائر الفنون حديثا و فقها و تفسيرا و علم مقاصد،و خصوصا المؤثرة في الحركة العلمية و التي لها علاقة بموضوع التأصيل أن يلجوا حلبة النقاش هذه و يُنوّرُوا الباحثين في مجال علم النفس و علم الاجتماع فيما لابد منه لفهم روح الدين، و لا نريد أن ندخل في جدال عقيم مؤسساتي تعصبي، فديننا قطعا دين الفطرة، فليبرز من كل فن أبرز رموزه و من أجمعت الأمة عليهم، فإنها لا تجتمع على ضلال، لكن بداية وانطلاقا من حسّ الفطرة من يدّعي الحق معه وحده و يُقصي من خالفه أو يكفره أو يبدعه حتما ليس هو من ندعو لإثراء هذا الحوار المبارك! و رحم الله الإمام الشافعي و مقولته المنصفة والموفقة و الجامعة للأمة:" **رأيي صحيح يحتمل الخطإ ،و رأي غيري خطأ يحتمل الصواب**"....

هذه **المقدمة الطويلة** عن الحكيم الترمذي كانت لازمة و أراها ضرورية وغير منفصلة عن الإلمام بموضوع بحثنا، و كثير من الدارسين لمختلف المدارس النفسية الحالية يغفلون **مسارات** المؤسسين الشخصية و بالتالي منطلقاتهم و خلفياتهم ، وهل أكد لنا أحد لحد الآن بأن مفهوم السواء معطى علمي مجرد؟، أم أن كل مدرسة تنبىء في الحقيقة عن خلفية و منطلق بل و نفسية مؤسسها؟؟

أطلت عمداً في التطرق لشخصية الحكيم و خلفيته العلمية و منهجه في تناول العلوم عموما و النفس الإنسانية على وجه الخصوص لدواعي رغبة التأصيل لدى شريحة غالية من أعضاء الشبكة ،علاوة على اقتناعي بأن دراسة مسارات مؤسسي المدارس المختلفة لا تنفصل عن الإلمام بأسسهم المقترحة..

جـــذور المدرســـــة السلوكيـــــة و تطورهـــــا

أ- توطئـــــــة

المدرسة الترمذية هي بحق أهم الشرارات الأولى للمدرسة السلوكية المعرفية تاريخيا، و الاختلاف في المدلول العميق للألفاظ و المصطلحات، و عدم الاغترار بالشكل، و لابد أن نقارن معطيات المدرسة الحكيمية مع المدرسة السلوكية المعرفية الحديثة، بل لابد أن يطلع الممارسون للعلاج النفسي السلوكي المعرفي على تحاليل الحكيم الترمذي خصوصا من يمارسون منهم فنياتهم في مجتمع مسلم، نعود لنواصل تحليلنا للمعطيات الحكيمية بعد أن نلقي نظرة على نشأة و تطور المدرسة السلوكية المعرفية الحديثة و من على شاكلتها..

ب- السلوكيـــــة الوضعيـــــة وتطورهـــــا

يرى الباحثون بأن السلوكية كاتجاه في الحقل النفسي انتشرت كردّ فعل عنيف ضد التفسير التحليلي النفسي الفرويدي ، الذي يرجع الأعراض النفسية المختلفة لصدمات طفلية ، ويقلص من نسبة المسؤولية الذاتية إزاء المرض النفسي عموما

أبحاث **بافلوف** و **بتشريف** كانت الشرارة التي ساهمت في إبراز السلوك اللاإرادي للإنسان ، والذي يعتبرونه استجابة لمؤثرات خارجية, كسيلان اللعاب

عند رؤية نوع من الطعام ،أو إبعاد اليد آليا وبسرعة عند تعرضها لمثير مؤلم...، وبما أن الإنسان يميل للتعميم وتفسير الغوامض بسرعة ، فقد حاول أقطاب هذا الاتجاه تفسير سلوك الإنسان عموما السوي منه والشاذ على ضوء هذه النظريات ، ويعّد "**شولتز** " صاحب طريقة الاسترخاء المشهورة و**واطسون** وتلميذه **سكيز** ،أبرز الوجوه في هذا المجال ، حيث ألحّوا على نظرية التعلم كتفسير عام للسلوك البشري ، وعزوا نشأة الأعراض النفسية المرضية كالرهاب مثلا إلى تعلم خاطئ , والعلاج حسب هذا المنظور يعتمد على تعلم جديد يطفئ تدريجيا التعلم السابق و ينتفي بالتالي العرض النفسي .

" **اسكينر** "skinner" اختزل كل النشاط الإنساني في عملية التعلم هذه واعتبر الإنسان عبارة عن علبة سوداء خالية من كل تفسير معرفي أو تفاعل فكري خلاق ، و الذي يفسر في نظره الآليات المرضية هو دراسة المثيرات الخارجية وطريقة رد الإنسان عليها وهو ما يعرف بالمثير والإجابة S-R .

" **باندورا** " ألحّ على العامل الاجتماعي ، وأقرّ بالتأثير العكسي بين الفرد والبيئة التي يحيا بداخلها ، مبتعدا عن التفسير السلوكي البحث السكيزي الذي لم يعمر طويلا كطريقة علاجية .

التفسير السلوكي البحت أو الراديكالي أغفل كل العمليات الداخلية وكل طاقة ابتكاريه أو خصوصية للإنسان ، نتج عن هذا الضيق الفكري والإختزال الحيواني نشأة تيار السلوكية المعرفية والذي أقرّ بوجود عمليات معرفية كوسيط بين المثير والإجابة ، حيث تمّت دراسة الأفكار والاعتقادات المتنوعة و المواقف النفسية , وكان " **أليس ألبرت** " صاحب مدرسة العلاج العقلاني الانفعالي أبرز الوجوه ، حيث أوضح بان الاضطرابات النفسية هي ثمرة للتفكير غير المنطقي واعتناق أفكار ومعتقدات غير عقلانية ، ووضع قائمة بهذه الأفكار, التقط فكرته " **بيك** " وطوّرها في مجال الاكتئاب النفسي ووضع خطة علاجية منهجية تعتمد على اكتشاف التفكير غير المنطقي ثم التخلي عن سائر المعتقدات الخاطئة التي من شأنها تعميق الشعور بالذنب وديمومة السلوك السلبي المحبط ، إلى غير ذلك من الفنيات المفصلة في أبحاثهم .

بظهور الكمبيوتر وازدهار عالم الإعلاميات بدأ يزدهر التيار المعرفي الراديكالي ، والذي يشبه الإنسان بالحاسوب المبرمج مسبقا ، وعلينا أن " نكتشف " **البرامج** التي يستخدمها الإنسان للتفاعل مع محيطه من خلال "**تشغيل** " هذه البرامج تماما كما يفعل الحاسوب ، وتكون النتيجة –وهي "السلوك المرتقب " عبارة عن خلاصة لمئات أو آلاف العمليات المعقدة المبرمجة أصلا في عقل الإنسان .

البرمجة اللغوية العصبية ومثيلاتها من المدارس أرادت دمج معطيات الحاسوب بما لها من بريق علمي وإغراء تطبيقي ميسّر ، والاستفادة من ممارسات بعض المعالجين النفسيين البارزين الذين يعتمدون أساسا على فنّيات التخاطب و على رأسهم **ميلتون اريكسون** و **فرجينيا ساتير** .

من هذه الزاوية يرى الباحثون بأنّ المعالج النفسي الناجح هو الذي يتوصل لتشغيل البرامج العقلية الداخلية " **بنقره** " على بعض المؤشرات البارزة على " الشاشة " فتنطلق العمليات بتلقائية ، وتفتح **النوافذ** والتي تعتبر مفاتيح أو انطلاقات للسلوك .و للتذكير مؤسسا البرمجة اللغوية العصبية باندلر و جراندر أحدهما متخصص في اللسانيات و الآخر في البرمجيات و الرياضيات !!

هذا الفهم رغم بريقه يعدّ قاصرا إذ يختزل الإنسان وطاقاته وقدراته الإبتكارية ، ولا يفسر بما يروي الغليل القدرات التأقلمية للإنسان على ضوء هذه المفاهيم المعلوماتية.

الإنسان في الحقيقة يتميز عن سائر المخلوقات بقدرته على التحليق وتجاوز بعده الذاتي (self-transcendance)، وهنا يكمن الاختلاف الجوهري بين السلوكية المعرفية وبين النظرة السلوكية الإسلامية بشقيها الإدراكي المعرفي والعملي التطبيقي ،

السلوكية المعرفية لا خبر لها عن الأشواق الروحية العليا, ، تعتبرها من قبيل التجارب الإنسانية الشاذة أحيانا ، ولا تدخلها في حقل دراساتها للنفس الإنسانية كقواعد **تؤصّل** لأسس العلاج النفسي .

السلوكية المعرفية تهتم بالمنظور , بعالم الشهادة ، بكل ما يهمّ السلوك البشري المشاهد الظاهر ودراسة حوافزه المختلفة ، لكن لن نسمع أبدا من السلوكيين أن سلوكا مُعيّنا دافعه الأساسي هو " الرغبة الأكيدة في إرضاء الله تعالى " أو أن حيرة إنسان ما وسهره وطول عبرته مصدرهم البحث عن الحقيقة وراء طور العقل,هذا العقل الذي لم يسعف كبار الفلاسفة والمفكرين، أقصد حين ألّهُوا عقولهم و تنكروا لمبدإ الألوهية!..

السلوكية تحدثنا عن الاشتراط ونظرية التعلم كأساس لفهم السلوك البشري برمّته ، لا خبر لها – كما أسلفنا – عن هذه التطلعات الغيبية ، لا يهُمّها هذا الصّوت الغائر المُقضّ للمضجع والمسهر لليالي ، هي تتجاهله وترى أنّه إنما يدخل في نطاق التجارب الإنسانية وليس له شأن بأحوال النفس و تقلباتها...., و نحن نرى أن الاضطرابات النفسية تشمل أيضا القلق الوجودي أو الفراغ الروحي....

النظرة السلوكية الإسلامية على النقيض من السلوكية الوضعية تعتبر هذا الصوت الباطني الناشد للحقيقة والمتطلع لما وراء الأكمة هو الأساس في كل سلوك بشري ، يظهر هذا الصوت بأشكال مختلفة ، عبّر عنه **فكتور فرانكل** بالأعصبة المعنوية ، وهو غياب معنى يحيى الإنسان من أجله ، وعبّر عنه **سارتر** بالقلق الوجودي , و "**يونج**" بنصف الحقيقة النفسية , و " **روجرز** " بحقيقة الشخصية , اختلفت العبارات نظرا لاختلاف المنطلقات والأواني ، لأن كل إناء بما فيه ينضح .

النظرة السلوكية الإسلامية تشمل كل ما توصّل إليه علم النفس السلوكي المعرفي مع إضافة تصحيح النية و صقل الدوافع ، تعترف بنظرية الجزاء والعقاب في إطار محدّد وليس بهدف تعديل السلوك فحسب ، تُدخل مبدأ الاشتراط العملي في مجال خطير جدّا ألا وهو زيادة الإيمان ونقصه وذلك بفعل كسب العبد أيْ بسلوكه , فأثناء تطبيقه للشعائر التعبدية المختلفة والجماعية منها على الخصوص , يرى المسلم نفسه تُقحم في مواقف اجتماعية تعالج الميول الانعزالية أو الرهابية في إطار عاطفي جماعي يتميز بالمرحمة والمودة مما يساعد في تثبيت مثل هذه الممارسات وإعطائها شرعية كاملة ، ينتج عنها سلوك متوازن ومعطاء , و هذا الذي يعبر عنه السلوكيون بمبدإ التدعيم.

و أعتقد أنّ تحمّس أكثر العاملين في حقل العلاج النفسي من المسلمين الصّادقين للعلاج السلوكي المعرفي ناتج عن تجاوبهم مع هذه المعطيات في جذورها , وبما أن الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقّ بها ، نفهم جيدا سّر هذا الحماس ومحاولات التطبيق المختلفة ، لكن أريد أن أنبّه دائما إلى الفرق بين الفنية أو التقنية وبين الخلفية الفلسفية أو العقدية أي المنطلق و خطورته و محوريته في مسيرة العلاج النفسي..

رغم كل هذا البريق والحقّ اللذين توحي بهما السّلوكية المعرفية إلاّ أنّها أغفلت أهمّ عنصر في فهم السّلوك البشري عموما, وفهم سلوك الإنسان المؤمن بالله والمسلم على الخصوص :"الإيمان و مبدأ الألوهية"، فالإيمان ليس عملية ذاتية شخصية فحسب ، بل يتعدّاه لعلاقاته بالآخرين وبربه أولا وقبل كل شيء ، الإيمان يفسّر سلوك الإنسان ويمثّل **المحرك الأساسي** لتعديل هذا السلوك ، علم التزكية أو طب القلوب، و الذي نحن بصدد توضيح مدرسة الحكيم الترمذي بشأنه، علم جليل ذو قواعد متينة و صلبة , اهتمّ بكل ما يهمّ المسلم ظاهرا وباطنا ، نرى أنّه ضمّ في حناياه كل قواعد السلوكية المعرفية عموما وزاد عليها ببعده الغيبي ...

الجذور السلوكية عند الحكيم الترمذي تظهر في تشبيهه النفس الإنسانية بالطفل الرضيع و بالبازي وبالدابة، يقول:" "وكذلك تجد الصبي قد ألف ثدي أمه ، حتى لا يكاد يصبر عنه ساعة فإذا فطمته اشتد على الصبي وبكى وقلق، فإذا

دام الفطم نسيه (وهو ما يقصد بالرياضة) وأقبل على الطعام والشراب، فكلما وجد حلاوة الأطعمة والأشربة هجر الثدي وعاف ذكر اللبن " (كتاب الرياضة صفحة37)..

هذه المقولة تلخص نظرية التعلم الركيزة الأساسية للمدرسة السلوكية، تشير أيضا لفنية إطفاء السلوك التدريجي عن طريق تعويضه بآخر ، و **البعد المعرفي** يظهر جليا في التحليل التالي ، يقول الترمذي:

" ففيكون المرتاض لنفسه حينئذ بمثابة رجل شرب ترياقاً فأمتلأت عروقه منه، فإن مد يده إلى حية أو عقرب وهي مقولات معنوية طبعاً – لم يضره سمهما، لأنه لم يجد السم مسلكاً إلى عروقه.. لأن القلب امتلأ بالأنوار ورأى شأناً عجيباً من عظمة الله عز وجل جلاله... فعندها يمد يده إلى ما أحل الله من الطعام والشراب واللباس والنكاح والاحتواء إلى ما قدر له من دنياه، فيقبله من ربه عز وجل على تدبيره الذي دبر له فإن أخذ أخذ بحق .." (كتاب الرياضة صفحة 63).

مزج بين السلوكي و المعرفي و الوجداني، فتذوّق الطفل للأطعمة بعد الفطام يناسب بالنسبة للمرتاض لنفسه اكتشافه و اطلاعه على عوالم جديدة مغايرة لعالم النفس التي يكون قد تعود عليها حتى إنه لا يقدر على مفارقتها، و الفطام مؤلم و تغيير العادات أو الخروج عن المألوف مؤلم أيضا..

فنحن هنا أمام بُعد معرفي جديد لم يفصله كثيرا المعرفيون الحاليون، لأنهم اهتموا أساسا بالأفكار التلقائية و الأفكار الخاطئة و العميقة و القوانين و تصحيحها، و لم يتطرقوا بعمق للمعطيات المعرفية من قبيل الترقي الإيماني أو الإلهام و ما يطلق عليه "العلم الذوقي"، و الذي ربما اعتبروه من قبيل ما لا يمكن وضعه تحت مجهر مختبراتهم التحليلية،و هذا موقف جدير بالوقوف عنده مليا،و مناقشته مناقشة متأنية و هادئة، لأنه يميز في الحقيقة بين علم النفس الوضعي و علم النفس ذي المنطلق الإيماني إن صح التعبير، و المنطلق من أصول الكتاب و السنة بالنسبة للحكيم الترمذي.

و الآن نلخص أسس المدرسة الحكيمية من خلال استعراض أهم ما ورد في كتابه :" الرياضة و أدب النفس"أو "حقيقة الآدمية" مع بعض التعليقات المواكبة ، مشيرين في البداية بإيجاز شديد إلى ما يرمز إليه علم السلوك أو علم التزكية، موضحين منذ البداية أننا بصدد اكتشاف الأسس و القواعد السلوكية و المعرفية ، أما التفاصيل و المقارنات المطولة فستكون موضوع بحث لاحق بتوفيق الله تعالى..

4- علـــــم السلـــــوك أو علـــــم التزكيـــــة

أ – تمهيـــــــــد

ما اصطلح على تسميته بعلم السلوك أو علم التزكية هو القواعد المبثوثة في كتب السلف المتعلقة بتهذيب الأخلاق و بتمحيص الدوافع والبواعث أو ما

يطلق عليه "**طب القلوب** " وكلها تربط السلوك الظاهر بالنية ، تفصّل أعمال القلوب وأعمال الجوارح ، ولم يخلُ عصر من العصور من مساهمات تطمح لتوضيح الغامض بالنسبة لأهل كل عصر متأقلمة مع معطيات العصر ومجيبة على ما جدّ من تساؤلات ونوازل لم يتمكن من سلف من البثّ فيها, حرصا من سلف هذه الأمة للحفاظ على نقاء العقيدة وتعميق إخلاص النية والتوجه بالأعمال كي يكتب لها القبول عند الله تعالى , وهذا الذي يفسر هذا الكمّ الهائل من التأليف في ميدان علم السلوك ، والذي يهمّنا في مجال علم النفس أو العلاج النفسي هوتوظيفهم لهذه القواعد الجليلة في فهم آليات الاضطرابات النفسية وكذا أسس الصحة النفسية من هذا المنظور ، علما بانّ كثيرا من الكتابات في علم السلوك أو بالأحرى التي تُحسب على علم السلوك تحتوي على شطحات وآراء شخصية ذوقية في أغلب الأحيان , وهذا النوع من الكتابة لن نستشهد به كقاعدة سلوكية ، فهو يُعبّر عن أصحابه بالأساس ، ويدخل في حقل التجارب والمواجيد الإنسانية .. أما القاعدة السلوكية فهي التي تستند إلى نص شرعي واضح سواء كان أية قرآنية أو سنة نبوية وتبعا لهما عمل السلف الصالح العدول في كل عصر إلى يومنا هذا .

هناك مصطلحات أربعة يرد ذكرها إبان التعرض لهذه القواعد , هذه المصطلحات تشكل العمود الفقري لعلم السلوك و روحه , و هي التي يستعملها أطباء القلوب لشرح دقائق السلوك الارتقائي و كذا مراتب النفس و مقامات الإيمان و مدارج السلوك , هذه المصطلحات الأربعة هي التي تمثل الجهاز النفسي من منظور إسلامي و هي العقل و القلب و النفس و الروح، و قد تطرق لها الباحث بتفصيل في كتابه العلاج النفسي و خطورة المنطلق ،يرجع لها من أراد الاطلاع أو مزيدا من التعمق و التفصيل...

ب- علـــــم السلـــوك عنــــد الحكيـــم الترمــــذي

~ تعريـــــــف عـــــام

علم السلوك يرمز إليه الحكيم الترمذي ب" الرياضة و أدب النفس " , وهي عنده : "**فمن جهاده أن يروض نفسه فيؤدبها وأدب النفس أن يمنعها الحلال حتى لا تطمع في الحرام**"، و هو يؤكد على أن الرياضة هي تأديب للنفس فقط، وليست تشريعاً جديداً،

"**وهذا الذي وصفنا من تركك الشهوات وتجنبك اللذات ليس تحريم ما أحل الله لك ولكن تأديب لنفسك ورياضة لها**"

أمامنا إذاً بُعْد سلوكي جديد يعي جيدا الجائز و المحرم، و يتعدّى مجرد الامتثال إلى "الزهد" في المباح، ندخل هنا في ميدان التطوع أو التنفل أو التقرب...حيث يظهر استعمال الإرادة الذاتية جليا مع كامل الوعي بالبعد الغائي من هذه الأعمال التطوعية .

المرتاض لنفسه يكون قد أغلق باب المحظور، و بالتالي يكون أراح نفسه من كل العواقب السيئة الناتجة عن اقتراف المحظورو أهمها تأنيب الضمير و التحسر و التسخط على الواقع و اجترار الماضي الأليم و غيرها..

أول ما نستوعب من مفهوم الرياضة أنها تشمل **ضمنا المراحل السابقة للنفس المطمئنة**،و هي مراحل النفس الحائرة والمترددة و القلقة، كأنّ الحكيم حين يركز على أصول الرياضة ، فهو في نفس الوقت يريد أن يقلل من شأن التركيز على التعمق و الإغراق في وصف أحوال النفس المريضة و المنحرفة عن طريق الفطرة، و هنا يبدو اختلافه حتى مع كثير من علماء السلوك المسلمين الذين ركزوا على اكتشاف عيوب النفس، في حين الترمذي ركز على نظرية المعرفة ، لأنك إذا عرفت الله وولج النور قلبك اختفت عنك أمراض النفس المختلفة تلقائيا! منهجية الحكيم تسعى للإيجاز و للتطرق للأهم و تطوي في طياتها عددا من المفاهيم الأخرى ، نفهم ذلك بداهة، نوع من أسلوب الكناية و التلميح و الإشارة...

الواقف عند الأوامر و النواهي يشعر أنه ممتثل و مسلّم و معترف لله تعالى بألوهيته و بربوبيته، يطمع في الدخول في معية المسلمين و ما يترتب على هذا الدخول من جزاء ووعد حسن يوم القيامة ، أما المتطوع أو المرتاض لنفسه فهو يطمع في الترقي و في استيعاب و تذوق الأحوال الإيمانية التي يتكلم عنها الصالحون من السلف و الخلف، يريد أن يتحقق من المعطيات الإيمانية ، يتعدى مجرد الامتثال إلى التلذذ بالمعية و بالكينونة مع المسلمين، لذا فهو يستعمل إرادته الذاتية و يعمد إلى سلوك اختياري و هو الامتناع عن المباح.

و للترمذي حكمة سلوكية عالية في هذا الاختيار الحر، فهو أوّلاً يُجلي استعمال الإرادة الذاتية بوضوح ، و ثانيا يبين عن نظرية في المعرفة تتجه ل"وعي الإنسان" تبعا للعالم المسيطر عليه ...

و أوّل عالم يهيمن على شعور ووعي الإنسان هو عالم "النفس" أي عالم الرغبات و تحقيق مقومات الذات المشتركة بين كل البشر، و هو عالم الدوافع و الغرائز المختلفة، عالم التدافع الأرضي و السيطرة و الهيمنة و حب التسلط، عالم الأقوى و الأذكى و الأسبق، يشترك فيها المسلم مع غيره من البشررغم تحليه بمعطيات إيمانية أغلبها غايات عليا و أماني لا تحقق مقوماتها كليا أثناء مدافعته لغيره و لعراكه لاحتلال مكان ما فوق هذه الأرض.

عالم المعرفة عند الحكيم الترمذي تدرجي و ارتقائي، فحين يبدأ المسلم في تجاوز عالم النفس هذا يحس بتحول في كيانه و في مداركه ، و إذا به قد ولج عالم القلب ثم عالم الروح و السر، و هكذا الرياضة النفسية عند الحكيم الترمذي مراحل و محطات معرفية و سلوكية،تحدث خلالها تغيرات جذرية و جوهرية في الكيان ، كل مرحلة تُقطع تسدل ستارا معنويا على المرحلة السابقة، و تبرز للوجود معطيات جديدة وجدانية و معرفية و سلوكية، و أول مرحلة هي "عالم النفس:"...

والنفس – عند الترمذي – مطبوعة على سبعة أخلاق هي أصل كل الشهوات، فإذا تخلص العبد من سيطرة الشهوات على سلوكه ووجدانه، بفعل المجاهدة، يتخلص بالتالي من تلك الأخلاق السبعة تدريجياً، حتى يصفو باطنه، ويلج النور قلبه، وهذه الأخلاق السبعة هي : الغفلة والشك والشرك والرغبة والرهبة والشهوة والغضب (كتاب الرياضة : صفحة 35) .و ربما نعود في بحث مقبل لتفصيل هذه الأخلاق السبعة التي عليها مدار الاضطراب النفسي لدى الحكيم الترمذي، لأننا الآن بصدد إلقاء نظرة عامة على أسس هذه المدرسة في تحليل النفس الإنسانية،نتابع تحليلنا إذاً..

ولا سبيل إلى التخلص من هذه الأخلاق إلا **بالمعرفة:**

"فكلما ازداد العبد معرفة وعلماً بربه عز وجل، استنار قلبه وصدره، وانتقص من الغفلة، ومن هذه الخصال السبع كلها حتى يمتلئ صدره من عظمة الله عز وجل وجلاله، فعندها كشف الغطاء وصار يقيناً، وزايله شرك الأسباب، وماتت الشهوة وذهب الغضب وذهبت الرغبة والرهبة، فلا يرغب الا لله، ولا يرهب إلا منه، ولا يغضب إلا في ذات الله ولا يشتغل بشهوة إلا بذكر الله عز وجل "

يظهرهنا جلياً الربط بين السلوكي و المعرفي..

و تنصب المجاهدة على النفس ' لأنها حسب الترمذي مطية الشيطان الذي يستعين عليها بالهوى , هذا الهوى هو أصل الشهوات , و هذه الشهوات ليست حراما مطلقا و هنا كل النكتة في الرياضة , يوضح مراميها و أبعادها الترمذي بتعليقه على مقولة ينسبها للفاروق عمر رضي الله عنه :

" إن العدو مع الدنيا و أرصاده مع الهوى و مكره في الشهوات .." ,

نسجل وقفة مع مصطلح "الهوى" ثم نعود لنتابع تعليق الترمذي على المقولة العمرية...

~ وقفـــــــة مع مصطلــــــــح الهــــوى

الهوى **مصطلح** يستعمله الحكيم الترمذي كثيرا، و هو في تصوره الوقود الحقيقي لعالم النفس،بمعنى أن النفس دافعها الأساسي نحو التحرك و السلوك هو الهوى،و هو يجمع كل ما من شأنه أن يدخل الفرح على النفس ،و الفرح عند الحكيم على ضربين:

- فرح محمود
- وفرح مذموم

و مصدر "**فرح**" ورد في القرآن بالنهي عنه"**لا تفرح إن الله لا يحب** الفرحين"، كما ورد بالحض عليه بالأمر الصريح:" فبذلك فليفرحوا"

و كعادته ينحو الترمذي الحكيم منحى التعمق في المعنيين،ليبين في النهاية بأن أيّ فرح منطلقه تلبية الشهوات و إشباع رغبات الذات دون مراعاة متطلبات الشرع فهو فرح مذموم لأنه منطلق من النفس وراجع عليها بالنفع العاجل يفتقر لعنصر المراقبة، اما الفرح المحمود فهو فرح القلب معدن الإيمان و هو في النهاية فرح بتلبية نداء الحق في قلب العبد، فهي نفس الكلمة و هي إلى حد ما حالة وجدانية ذات بُعدين، أي **ثنائية البعد**، و يمكن أن نستقصي مثيلاتها في القرآن و السنة، و هذه من أهم الخصائص المفرقة بين علم النفس الوضعي و علم النفس ذي البعد الإيماني.

يبين الحكيم أن هذا الهوى إذا أطلق له العنان و لم يقيد بمصدر مشرع خارج عن ذات الإنسان مثل نصوص الكتاب و السنة، من شأن هذا الهوى الحُرّ الطليق أن يضرّ بصاحبه رغم ما يخيل إليه وهماً بأنه يحقق أعلى درجات المتعة و تحقيق مقومات الذات، هذا الهوى الذي يمثل الدوافع الحقيقية للنفس يجب علينا كمتخصصين في المجال النفسي أن نتعمق في مدلوله مع الحكيم الترمذي، الذي بداهة يشترك مع كل المدارس الوضعية التي تهتم بدراسة الدوافع و الغرائز مثل المدرسة التحليلية و العقلانية الانفعالية و الوجودية و غيرها، يشترك معها في الاعتراف بوجود هذه الدوافع كمحركات للسلوك، وهو يستعمل مصطلحا واحدا و هو "الهوى"،و يقصد به كل ما من شأنه أن يمثل دافعا أو غريزة تحقق للنفس متعة أو تقديرا و احتراما أو اعترافا بخصوصية و تفرد و غيرها....

"الهوى" مصطلح قرآني اعتمده الحكيم وانطلق منه ليقعّد أصولا نفيسة تتعلق بتحليل النفس الإنسانية، و هذا من إعجاز القرآن الكريم الذي يوجز في كلمة واحدة عوالم متنوعة ،و يترك للعقول المتنورة المجال للتحليق في مدلول الكلمة و أبعادها ..

من إعجاز السنّة أيضا فيما يتعلق بهذه الكلمة و هذا المصطلح هو أن نفس هذا الهوى يصلح مطية لنيل متع الدنيا حصراً مع حرمان صاحبه من ثواب الآخرة،كما يصلح لبلوغ أرقى مراتب الإيمان:" لا يومن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به"(الأربعون النووية رقم41)،و النبي صلى الله عليه و سلم أوتي جوامع الكلم، عبارات صغيرة تنطلق منها معان غزيرة، و هو جزء من معنى البيان الوارد في قوله تعالى:" ..خلق الإنسان علمه البيان"(الرحمن)، و "لا يومن أحدكم" بمعنى لا يكمل إيمان أحدكم، و ليس معناه نفي الإيمان..

هو هو نفس الهوى، نفس الطاقة المنطلقة من النفس، والعبارة النبوية السابقة ترمز إلى متعة النفس و فرحها حين ترقت من الاكتفاء بمتع الدنيا و لذاتها أي من ضيق الدنيا إلى الاستمتاع بواردات الإيمان و التبتل إلى الله و الامتثال

لأوامر الله و سنة رسوله صلى الله عليه و سلم، حين يصير هوى الإنسان تابعا لما جاء به النبي صلى الله عليه و سلم، يحصل هذا حسب الحكيم الترمذي كنتيجة للرياضة النفسية..

نتابع مع الترمذي و هويعلق على المقولة العمرية : " و إنما صار مكرا لأن هذه الشهوات بعضها مطلق و بعضها محظور , فيمكر به في المطلق ليجره إلى المحظور عليه , لأن النفس بلهاء , فإذا مرت في الحلال فتمكنت منه سلست في الحرام إذا لم يكن في القلب ما يقيد النفس عن الحرام و يقويها حتى لا تسلس, و قوة القلب من النور .." (كتاب الرياضة ص.45)

صفة "البله" التي أضفاها الحكيم الترمذي على النفس يقصد بها الانقياد ، و لولاها لم يكن هناك مجال لتربية الإرادة، إذ لو لم تكن النفس مادة طيعة مطواعة، لكانت الإرادة حقاً شيئاً مستعصياً وقاراً بدون مرونة،بمعنى أن الإنسان ليس فقط مجموعة منعكسات شرطية أو غرائز بيولوجية، فالنفس إذا أطلق لها العنان في المباح تعلقت بالمتعة المترتبة عن مقارعة هذا المباح و **بكل تأكيد غازلت مراكز المتعة بالدماغ مثلما يحصل للمدمنين**، و في غياب وازع داخلي يمحص الدوافع تميل النفس للاسترسال في تحقيق مقومات شهوة أشبعت نهمها منها في الحلال و بلغت منها الذروة في المتعة ،في غياب الرادع الأخلاقي لا تأمن من الانسياق للمحظورإذا لم يكن في القلب ما يقيد النفس عن الحرام حسب تعبير الحكيم الترمذي...

" و النفس لا تهدأ و لا تقنع لأن شهواتها لا تنتهي و الشيطان يعدها و يمنيها "(الحكيم الترمذي)

~ القلـــــب و النفـــس و الهـــــوى

و السلوك نوعان :

-نوع يهم عمل الجوارح .

-ونوع يخص عالم القلوب و التي لها سير معنوي :

"ثم جعل للقلوب محلاً في عظمته حتى تسير القلوب إلى ذلك المحل "(كتاب الرياضة صفحة 54) .

والذي يعوق هذه القلوب عن السير هو الهوى، لأن القلب لا بد له من "وله" أي محبوب يتجه إليه بحبه إلى درجة التعلق ، وما لم تكن عظمة الله تعالى هي وجهة "الوله"، كان الهوى :

"لأن الله عز وجل أوله قلوب العباد إلى ألوهيته، فمن صان قلبه عما تورد النفس عليه بقي قلبه مع الله عز وجل في جميع الأحوال، ومن لم يصن قلبه حتى أوردت النفس عليه أفراحها التي أورد عليها الهوى من باب النار، فقد صار وله القلب إلى الهوى "(كتاب الرياضة صفحة : 54) ، وهذا ما يعرف بالطب الوقائي.

لا يتسع المجال في إطار هذا البحث للغوص و بدقة و تفصيل في كل مصطلح، لكن نشير إلى أهمية صفة "الوله" المتعلقة بالقلب،يرى الحكيم بأن خاصية التعلق لدرجة الهيمان و التفاني و الولع هي من خصائص عالم القلب، القلب إذا عبارة عن طاقة توجه ينتج عنها تعلق و ينتج عن هذا التعلق سلوك يسير في ركاب هذا التوجه، يقول في نفس السياق عالم من السودان توفي قبل 150 سنة اسمه إبراهيم الأمين الكباشي الحسيني في رسالة أسماها "إرشاد المريد":"و على المريد أن يجتهد في حفظ قلبه من الوساوس و الأماني و الخواطرالرديئة، و ليقم على باب فلبه حاجبا من المراقبة يمنعها من الدخول إليه،فإنها إن دخلت **أفسدته و يعسر** بعد ذلك إخراجها منه"(جولة عاشق مع إرشاد المريد للمؤلف ص.39)،هو نفس المعنى و إن اختلف التعبير،و هذا من خصائص علم السلوك..

أريد فقط أن أنوه هنا إلى أنه كما أن الغرائز تتميزبطاقة محركة للسلوك، و هو العالم الذي فصله و بإسهاب جل المشتغلين بالميدان النفسي، كذلك القلب مركز الإيمان و الذي هو موطن الأمانة:" إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال،ثم علموا من القرآن ،ثم علموا من السنة"(البخاري 2382و مسلم 126)، هذا القلب هو أيضا طاقة محركة للسلوك، و هذه الثنائية و هي تعددية و إثراء للميول الإنسانية، هذه النظرة تميّز وتفرد بها الحكيم و من على منواله من علماء السلوك...

وصفة انقياد النفس يؤكدها الحكيم الترمذي حين يشبه النفس بالصبي والبازي والدابة :

"وكذلك تجد الصبي قد ألف ثدي أمه ، حتى لا يكاد يصبر عنه ساعة فإذا فطمته اشتد على الصبي وبكى وقلق، فإذا دام الفطم نسيه (وهو ما يقصد بالرياضة) وأقبل على الطعام والشراب، فكلما وجد حلاوة الأطعمة والأشربة هجر الثدي وعاف ذكر اللبن " (كتاب الرياضة صفحة37).

وهو يكني عن الثدي واللبن هنا باعتياد النفس الشهوات وشدة تعلقها الفطري بها ويكني بالأطعمة والأشربة يقصد بها الإيمان واستنارته وحلاوته :

"لأن الإيمان في القلب، ولا يستنير في الصدر لإ حاطة غيوم الشهوات ورين الذنوب بالقلب في الصدر حتى إذا تاب العبد صقل قلبه بالتوبة " (كتاب الرياضة صفحة : 70) .

وهذا الصقل يستمر ويشتد كلما نزع العبد عن المعاصي والشهوات فيصير القلب حينئذ كالمرآة :

"**فإذا صار كالمرآة تراءت له الدنيا على هيئتها، والآخرة على هيئتها والملكوت** "..

(كتاب الرياضة صفحة : 71) .

وهذا هو اليقين و هو المعني بدرجة الإحسان الواردة في حديث "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"..

والرياضة عند الترمذي الحكيم : هي فطم النفس عن كل ما تهواه حتى تستقيم الشهوات على أمر الله ، وتلك هي مرتبة النفس المطمئنة :

"فهناك يملك نفسه أن تقف على الحلال فلا تجاوزه، فهو ينطق ، فإذا بلغ في منطقه مكاناً يصير ذلك الكلام عليه غيبة أو كذباً ملك نفسه فامتنع وتورع، لأن شهوة الكلام قد ماتت منه، (ربما نقول خمدت إلى حد كبير)،فهو يتكلم لله عز وجل وابتغاء مرضاته، وكذلك النظر إذا كان قد راض نفسه حتى ماتت منه شهوة النظر، ملك نفسه عند الحرام، وملك السمع وسائر الجوارح السبع (وهي اللسان والسمع والبصر واليدان والرجلان والبطن والفرج) "

فيكون المرتاض لنفسه حينئذ بمثابة : "رجل شرب ترياقاً فأمتلأت عروقه منه، فإن مد يده إلى حية أو عقرب وهي مقولات معنوية طبعاً – لم يضره سمهما، لأنه لم يجد السم مسلكاً إلى عروقه.. " "لأن القلب امتلأ بالأنوار ورأى شأناً عجيباً من عظمة الله عز وجل جلاله... فعندها يمد يده إلى ما أحل الله من الطعام والشراب واللباس والنكاح والاحتواء إلى ما قدر له من دنياه، فيقبله من ربه عز وجل على تدبيره الذي دبر له فإن أخذ أخذ بحق .." (كتاب الرياضة صفحة 63).

الرياضة إذاً تُصحح النية وتعطي للعمل حوافز عالية سامية ربانية،والمرتاض لنفسه يمتاز بالتلقائية في تنفيذ أوامر الله ، بمعنى أن حوافزه ارتقت من المستوى النفسي إلى المستوى القلبي ،يقول الترمذي بهذا الشأن :

"فمن عجز عن الرياضة، فإنما يقبل أحكام الله تعالى ومشيئاته على حد التقوى بأركانه ، على ثقل من نفسه، وتنغيص وتكدير من عيشه، وجهد من قلبه " (كتاب أدب النفس صفحة : 99) ....

ويجعل الحكيم الترمذي على طول صفحات، مؤلفه الآية الكريمة التالية مرآته : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾ (العنكبوت 69)، حيث يقول : "وانما الشأن أن تجاهد في بدء أمرك حق جهاده، فإذا أنت قد ظفرت بالوعد الثاني قد أنجزه لك فإذا هداك السبيل، ملأ قلبك نوراً وكلاءة ورعاية حتى لا تزيغ " (كتاب أدب النفس صفحة : 100).

فالترمذي لا يدعو إلى الانقطاع عن الدنيا كما يفعل المتنسكة من "البوذيين" وانما الرياضة عنده علاج و "وسيلة" لبلوغ حالة راقية من الشفافية الروحية والصفاء القلبي والاطمئنان النفسي،أما أصحاب الرياضات الروحية ذات المشرب الهندوسي فهم يسعون في نهاية مشوارهم إلى قتل كل شعور بالعواطف يطلقون على هذه الحالة "**انمحاء الذات**"effacement de l`ego"،ليتوصلوا إلى ما يسمونه

:"الالتحام بلا وهم"fusion sans confusion"،و طبعا هذه الرياضات مطعمة و بقوة بنصوص دينية و ليست مجرد تأملات أو تركيزاً للوعي كما فهم خطأ كثير من الممارسين لهذه الرياضات أو الفنيات و من بينها "اليوجا"...

الهدف الأساسي من الرياضة هو تخليص القلب – الذي هو أمير الجوارح – من رق النفس (أي عبوديتها).

"إن النفس اعتادت اللذة والشهوة والعمل بالهوى ، فكلما اشتد عليها فطم شيء ، فأقبل قبل ذلك الشيء حتى تفطمها عنه، حتى يصير قلبك حراً يألف مع الله عز وجل ببره ولطفه " (أدب النفس صفحة : 36) .

هذه المقولة لخصت في الحقيقة مرامي علم السلوك برمتها , و أشارت إلى أن الجهد ينبغي أن ينصب أولا على عالم النفس, و هي المرحلة الأولى في السير , تليها مرحلة التحقق القلبي , و عبارة "**حرا مع الله**" تشير إلى أن القلب في أسْر و في سجن ما لم ينجز الإنسان المرحلة الأولى من السير, حتى إذا ما تم قطع هذا الشوط , يتحرر القلب من قيود النفس و يألف مع الله عز و جل...

و لابد أن نقف هنا مع عبارة " **يألف مع الله** " و التي يعتبرها الترمذي نتيجة طبيعية لنيل القلب حريته.

الألفة هي درجة من الانسجام و التوافق و الرضى و التسليم , هي حالة وجدانية و سلوك عملي , هي همة عالية و إرادة نافذة و عزم لا ينثني , هي إحساس بالراحة بعد بذل جهد شديد , و هي استراحة المسافر بعد انتصاره على كل معوقات الطريق , و هي بلوغ المنزل حسب قول المعصوم صلى الله عليه و سلم : " **من خاف أدلج و من أدلج بلغ المنزل , ألا إن سلعة الله غالية , ألا إن سلعة الله الجنة** "

حين يبلغ الحديث لهذه المنطقة يعسر الشرح شيئا ما لأنها منطقة أذواق,و هنا بالضبط تحصل الشطحات , و العبرة أساسا بالإطار العام أي بالقواعد التي تحكم علم السلوك و التي من شأنها أن تؤدي لبلوغ المنزل , **فالمطلوب هو هذا البلوغ لا التعبير عنه** , لذلك يترك المشرع لكل سالك فرصة الاستمتاع إلى أقصى حد بثمرة سلوكه المضني ضمن علاقة تعبدية خالصة بينه و بين ربه يتحقق من خلالها بالسر من خلقه و بكل المعطيات الإيمانية التي انتقلت من طور التصديق العقلي الفكري التفكري إلى مرتبة التيقن القلبي و معانقة عالم الروح ,هذه العلاقة الخالصة تبلغ ذروتها مع الكتمان حيث يمحص الهدف أكثر و تتحدد الغايات بوضوح و بجلاء و يضيق الطريق على الرياء , الشرك الأصغر , يعقب هذا شعور بسعادة لا يمكن أن توصف بدقة , بل على العكس محاولة التعبير عنها أو شرحها ربما يضر بصاحبها و يخون معانيها العميقة , و لربما السر في عدم التعبير عنها هو تعميق صلة العبد بربه و التي تظل قاصرة عن المطلوب

مهما اجتهد العبد , و كأنّ التعبير يشكل توقفا في هذه المسيرة الباطنية و التي لا تتوقف في الحقيقة إلا بانتقال الإنسان من الدنيا إلى الآخرة , و لو كان توضيح هذه الأحوال من شأنه أن يساهم في ترقية السالك لخصص له النبي صلى الله عليه و سلم مجالس حافلة , مما يبين لنا أن كتمان أحوال السالك هو القاعدة و هو الذي يوصل لألفة القلب مع الله و لحريته الحقيقية.. و قد جاء في الحديث :" استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان "....

يقول الحكيم الترمذي

~الأبعـــاد النفسيـــــة للرياضـــــة النفسيـــــة

:" .. فمن عجز عن الرياضة، فإنما يقبل أحكام الله تعالى ومشيئاته على حد التقوى بأركانه ، على ثقل من نفسه، وتنغيص وتكدير من عيشه، وجهد من قلبه " (كتاب أدب النفس صفحة : 99)

الخطاب هنا موجه للمسلم الذي قبل أحكام الله تعالى و مشيئاته , أي الذي دخل في معية المسلمين , لكنه لعدم رياضته لنفسه فهو يقبل هذه الأحكام على حد التقوى بأركانه على ثقل من نفسه و جهد من قلبه و تنغيص و تكدير من عيشه ...

الثقل ضد الخفة و النشاط و الحيوية و التلقائية..

الثقل إذاً هو الكسل و الإحباط و التردد و الانعزال , و مايتبع هذا من إحساس بالدونية مقارنة بمن يمتازون بخفة النفس و بالحيوية و بالتلقائية..

المنطلق هو تقبل أحكام الله و مشيئته , هذه مرجعية لابد من استيعابها لفهم الخطاب جيدا , **فالرياضة بدون هذا المنطلق تكون رهبنة** , لذلك فخطابه لمن عجز عن رياضة نفسه , يقصد من المسلمين , و يؤكد هذا المعنى بقوله :

" **يقبل أحكام الله تعالى و مشيئاته..**",

ثم بعد ذلك يشرح المؤلف نفسية من لا زال في مقام النفس لم يفطمها بعد عن رغباتها بأنه يقبل هذه الأحكام بنفس غير مطمئنة و التي تسمى في المراحل الأولى " **نفسا أمارة بالسوء** " , و هي النفس التي تتعب صاحبها بالطلبات و الرغبات و الطموح الدنيوي غير المحدود بل و غالبا غير المعقول , و أحيانا المتعدي على حقوق الآخرين , و في هذا المستوى من أطوار النفس يمكن إدراج سائر أمراض النفس الفتاكة , هذه المرحلة من السلوك الإنساني تجسد الثقل في تقبل أحكام الله في أبرز صوره , لأن النفس الأمارة بالسوء تكون على طرفي نقيض من متطلبات هذه الأحكام الإلهية , و تناقش بطبيعة مرحلة الأمارة مشيئة الله , أي تقبل القضاء و القدر..

هذا الطور من النفس يعكس حالة من القلق و الضجر, يصل إلى اضطراب وظائف أخرى كالنوم و الأكل و علاقات الإنسان بالآخرين و بأقرب الناس إليه,

تؤثر كذلك على إشراق وظيفة عقله فيما يتعلق بوضوح أهدافه و غاياته, فينتاب هذه الغايات نوع من الغموض و عدم وضوح الرؤية مما يجعل خط السير متذبذبا و متعرجا, فهذه هي حالة المسلم العادي المستسلم لشهواته ورغباته, المتواكل, هو العاجز الذي ورد ذكره في الحديث: " الكيس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت , و العاجز من أتبع نفسه هواها و تمنى على الله الأماني"....

في الحقل النفسي, حالات الاكتئاب و القلق و مختلف الصراعات النفسية و الأسرية و التأقلمية و الاجتماعية, و حالات الإحباط المختلفة المترتبة عن فشل المشاريع و بعض الخطط الاستراتيجية تكون في غالبها ناتجة عن انطلاقة نفسية من عالم الأمّارة, أي من صميم الرغبات النفسية الذاتية الترابية, و تكون درجة التوتر و القلق و الضجر موازية لدرجة استثمار هذه الرغبات الشخصية و حدة النزعة الذاتية, و يكون بالتالي الإحباط على قدر درجة الاستثمارو الأنانية أو النزعة الذاتية...و لا زلنا نتكلم عن المسلم الذي يفترض أن يقبل أحكام الله و مشيئته, بمعنى أن الضجر و القلق و ثقل النفس منبعها **الصراع** بين المستوى المعرفي و هو الإيمان و التسليم بشرع الله, و المستوى السلوكي المتذبذب في تطبيق هذه الأركان...

المستوى الثاني بعد " الأمارة " هو طور " **اللوامة** " , و هي بداية مشوار " التقوى" و التي تفيد تجنب النواهي و الامتثال للأوامر , أي محاولة انسجام الجانب المعرفي و السلوكي , في هذا الطور لا زالت النفس تسعى في أغلبها لتحقيق الرغبات, و تقابل بلوم شديد مبالغ فيه و هو معنى " اللوامة " , مما يدل على أن المسلم حين يتوجه بكيانه أو يتوق لهذا الانسجام المذكور بين المعرفي و السلوكي تتبلور لديه أكثر رغبات نفسه و تشتد حدتها , و تكبر في المقابل عملية اللوم , فيحتدم الصراع و يصاحب هذه المعركة نوع من القلق و الضجر و خصوصا ما أطلق عليه الحكيم الترمذي " و جهد من قلبه " , لأن المرحلة تجاوز لمستوى ترابية النفس إلى مناشدة عالم و محتويات القلب و الصدر , فيشكل هذا الصراع جهدا شديدا على القلب , فالجهد هنا يرمز إلى غربة أدوات القلب وسط براكين رغبات النفس..

هذه الغربة هي بداية الحافز القوي نحو التغيير, و هو – أي الحافز – معطى معرفي, إحساس بوضعية معينة تقصر عن الأهداف العليا المنسجمة مع المعطيات المعرفية الإيمانية الأساسية التي تشكل الأساس و القاعدة للدخول في معية المسلمين..

هذا الإحساس بالقصور و بسفلية الهمة هو الذي يترجم عبارة الترمذي "..عن جهد من قلبه .."

هذا الثقل من النفس و الجهد من القلب يؤديان منطقيا إلى تنغيص و تكدير العيش, فالمسلم المخالف سيره لطريق الفطرة يتعرض لتناقض صريح بين المعطيات المعرفية الإيمانية و السلوكية, و هذا التناقض هو الذي يجعله لا يستمرىء وجوده و دنياه و لا يستمتع بها كما يستمتع " مريد العاجلة ", بل على العكس تكون كل مكاسبه من هذا الدرب سببا لتنغيص عيشه, و هنا منطلق كل الانحرافات المزاجية و حالات القلق و الاكتئاب النفسيين..

هذه هي باختصار حالة من عجز عن رياضة نفسه, فإذا صحا الحافز أو الباعث نحو التغيير, و عزم مريد الآخرة على الكد و السعي لها, يدخل صاحب هذا الحافز في مجال الرياضة النفسية و في كل ما يترتب عنها من أحوال سامية و من انسجام المعطيات المعرفية و السلوكية..

.. . فهناك يملك نفسه...

ثمرة الرياضة النفسية أن يملك المسلم نفسه و يتحكم في مسارها, بخلاف من تقوده نفسه الأمارة و يستسلم لسلطانها الغريزي..

و ثمرة الرياضة أن يتحكّم المرتاض لنفسه في ما عبر عنه الترمذي بالجوارح السبعة (وهي اللسان والسمع والبصر واليدان والرجلان والبطن والفرج)...

سبع جوارح جمعت في الحقيقة وظيفة النطق و التخاطب و التواصل و كل الفنيات المتعلقة بها، ووظيفة البصرو هل يجب إطلاقه على عواهنه أم تقييده و لماذا، و السمع و ما أعقدها من وظيفة، هذا فيما يخص جانب **الحواس**، الجانب الحركي العملي اليدان و الرجلان ما يتعلق بتحركات الإنسان فوق هذه الأرض و ما يدفعه لذلك، البطن و قد فصلت المناهج الحديثة اضطراب هذه الوظيفة بإسهاب و أثرها على الصحة النفسية، و أخيرا الفرج و لا نحتاج تفصيلا فهو صار تخصصا مستقلا ، و عبقرية الحكيم الترمذي في جمعه لعناصر متفرقة تشكل في الحقيقة حاليا تخصصات مستقلة بمدارسها في أنحاء العالم، جمعها في عبارة واحدة ليفصلها بعد ذلك في عشرات الصفحات، منهجه دائما هو منطلقه من نصوص القرآن أو السنة، و التي تتميز **بالإيجاز و البلاغة**، و الترمذي حاول الغوص لروح هذه النصوص متسلحا بالعلم الشرعي أوّلا كمنطلق لرياضته لنفسه ،هذه النفس التي صهرها بمجاهداته لها و بصبره على الابتلاءات التي تعرض إليها ممن لم يستوعبوا أبعاد اجتهاده، و الإمام علي بن أبي طالب حين سئل :" هل خصكم رسول الله صلى الله عليه و سلم بشيء دون الناس يا آل بيته؟أجاب :"لا ماخصنا بشيء و الذي فلق الحبة و برأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه.." و هو،أي القرآن الذي:"لا تنقضي عجائبه"، و الحكيم الترمذي يؤسس مدرسته في تحليل النفس الإنسانية على هذا الأساس إذ يبين من يحق لهم الإدلاء

بفهم في كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه و سلم ممن لا يحق لهم ذلك،هذا التخصيص يميز في الحقيقة منهج الحكيم الترمذي لأن كثيرا من الباحثين الذين يتوصلون لاستيعاب آلية من الآليات النفسية يسرعون إلى تعميمها مثلما ما حصل مع مدرسة التحليل النفسي، و من أهم ركائز المدرسة السلوكية المعرفية الحديثة توضيحها لأخطاء التفكير و من أهمها "التعميم الخاطىء"..

نواصل مع الحكيم الترمذي و مع عبارته:

"فهناك يملك نفسه أن تقف على الحلال فلا تجاوزه....،وسائر الجوارح السبع (وهي اللسان والسمع والبصر واليدان والرجلان والبطن والفرج) "

البداية طبقا لروح الرياضة النفسية هي الامتناع عن المباح, و هو في عمقه عمل اختياري غير إلزامي, يتجلى فيه بوضوح استعمال الإرادة الحية و الهادفة, هذا السلوك من ثمراته سهولة الامتناع عن المحظور إذ يبدو منطقيا أن الذي يمتنع عن المباح بكامل وعيه و إرادته يأنف و يتعفف بل و ينفر من الاقتراب من الحرام, هذا السلوك يقوي ذلك النوع من الإرادة التي تطمح للتطهر و التقرب إلى الله تعالى, و مع ترسيخ هذا السلوك تتأثر مكونات الإنسان المعنوية و المادية و تكتسب خاصية التوقف التمحيصي و التثبت أي أن مساءلة الغايات و النية تصير خلة ملازمة لها, فيتضافر حينئذ الشعور و اللاشعور في إبراز كائن واع تماما بدوافعه مستبصر بكل معطيات سلوكه الظاهر و الباطن, الحس التوقفي أو التثبتي يقول عنه الحكيم الترمذي:

"فهناك يملك نفسه أن تقف على الحلال فلا تجاوزه، فهو ينطق، فإذا بلغ في منطقه مكاناً يصير ذلك الكلام عليه غيبة أو كذباً ملك نفسه فامتنع وتورع، لأن شهوة الكلام قد ماتت منه، فهو يتكلم لله عز وجل وابتغاء مرضاته، وكذلك النظر إذا كان قد راض نفسه حتى ماتت منه شهوة النظر، ملك نفسه عند الحرام، وملك السمع وسائر الجوارح السبع..... " ..

استعمال الإرادة الذاتية في مجال الرياضة النفسية يُرسّخ النتائج بحكم أن الانطلاقة نبعت من الإنسان ذاته, فهي تكتسب مشروعية قوية, و الثمرة الثانية هي التلقائية , و حين يكون السلوك تلقائيا تنتفي عنه منطقيا كل أشكال الصراعات , و بالتالي كل الاضطرابات النفسية المعهودة , و يدخل المرتاض لنفسه بعد ذلك في عالم من المعاني هو عبارة عن سير معنوي خاص بالقلب ينفر من عالم المادة و يشق طريقه نحو الحقيقة الخالدة , حقيقة الألوهية و الربوبية و سر الخلق و المآل , حقيقة الإنسان و موقعه بالضبط وسط كل هذه المعطيات المرئية و غير المرئية ..

التلقائية هي مطلب كل معالج نفسي, و التي تفيد في عمقها انسجام المعطيات المعرفية أي عالم التصورات و الغايات مع السلوك الظاهر, التلقائية التي يحصل عليها المرتاض لنفسه مبنية على قواعد صلبة تشترك في إرسائها أدوات الباطن

و السلوك الظاهر المتمثل في اختبار المعطيات المعرفية على أرض الواقع من خلال سلسلة من التجارب السلوكية الناجحة منها و الفاشلة, هذا الذي يعطي قوة لثمرات الرياضة, ويجعلها مطية و قاعدة صلبة لمعراج سلوكي ذي بعد خاص يتجاوز المحسوس و المعقول, لأنه عالم التحقق بمقومات الإيمان, و هو ما عبر عنه الترمذي بقوله:

" لأن القلب امتلأ بالأنوار ورأى شأناً عجيباً من عظمة الله عز وجل جلاله... فعندها يمد يده إلى ما أحل الله من الطعام والشراب واللباس والنكاح والاحتواء إلى ما قدر له من دنياه، فيقبله من ربه عز وجل على تدبيره الذي دبر له فإن أخذ أخذ بحق.." (كتاب الرياضة صفحة63

هنا نتبين الارتباط العضوي بين المعرفي و السلوكي و الوجداني, فقوله: " "..فعندها يمد يده إلى ما أحل الله من الطعام و الشراب و اللباس و النكاح و الاحتواء إلى ما قدر له من دنياه..."، نفهم من السياق أنها عودة لتعمير الدنيا لكن بنفسية مغايرة عن الحالة التي كان عليها قبل رياضته لنفسه, فهو بمثابة رجل شرب ترياقاً فأمتلأت عروقه منه، فإن مد يده إلى حية أو عقرب وهي مقولات معنوية طبعاً – لم يضره سمهما، لأنه لم يجد السم مسلكاً إلى عروقه.. "

هذه المقولات المعنوية تترجم حالة نفسية تتميز بالنضج و بالاستقرار الناتجين عن تقدم حقيقي في مجال الإدراك الباطني, و هذه المنطقة في الحقيقة منطقة أذواق, تعتمد أساسا على التجربة الشخصية التي تنصهر فيها كل المعطيات المعرفية و السلوكية و الوجدانية, فالرياضة النفسية هي المجال الذي تتبلور فيه نتائج رحلة الإنسان نحو الحقيقة, فكان منطقيا أن تشارك كل مكوناته في هذه الرحلة و على رأسها التجربة الوجدانية, إنما الفرق بين النظرة السلوكية الإسلامية و بين التيارات الوجودية التي تعتمد على التجربة المعاشة هنا و الآن, هو أن التجربة من منظور إسلامي تنطلق من أصول معرفية إيمانية و تخضع لإطار منهجي سلوكي يتجلى فيه استعمال الإرادة الذاتية من جهة, و يتوج بالوهب الإلهي من جهة ثانية, يربط الحقائق الدينية بأطوار النفس التي تتلمس حقيقة سيرها و عروجها, و التي يفترض أن تصل إلى مستوى من الإدراك يضمحل فيه الوعي المجزأ أو المنشطر بالأشياء, و النتيجة وعي كامل بالكيان أجمع تعبر من خلاله كل مكونات الإنسان النفسية و الوجدانية و السلوكية على نفس الحقيقة بلغة واحدة, فهو معنى واحد متعدد الروافد, و هذا أقصى ما يمكن التعبير عنه بخصوص ثمرة الرياضة النفسية, و إلا كدنا أن نخل بعمق المعنى بل و ربما شطحت بنا العبارة.!..

أما بالنسبة للتيارات الوجودية المنطلقة من فلسفة "هوسرل" و العلاجات المتبنية فلسفة الجشطلت الألمانية كما هو الحال عند "بيرلز" و إلى حد كبير "العلاج بالمعنى" ل"فرانكل" و غيرها كثير ممن ينحون نحوهم فالتجربة الوجدانية

لديهم تنطلق أساسا بل و حصرا من ذواتهم، و عمق و حقيقة التيار الوجودي أن يعمد إلى إقصاء كل الماهيات و بالتالي كل موروث ثقافي أو ديني من أجل التوصل إلى الماهية الأصلية!؟، نفهم بيسر أن هذه الاتجاهات تنافي مبدأ الألوهية الذي ينطلق منه الحكيم الترمذي، فكل من الحكيم وغيره يبرز أهمية التجربة الوجدانية و الاختلاف الجوهري في المنطلق.

ثم جعل للقلب محلا في عظمته

هذه العبارة تحدد وجهة العواطف و محتويات القلب و أدواته, يقول في موضع آخر:

"لأن الله عز وجل أوله قلوب العباد إلى الوهيته، فمن صان قلبه عما تورد النفس عليه بقي قلبه مع الله عز وجل في جميع الأحوال، ومن لم يصن قلبه حتى أوردت النفس عليه أفراحها التي أورد عليها الهوى من باب النار، فقد صار وله القلب إلى الهوى "(كتاب الرياضة صفحة : 54)

فـــي نفـــس السيـــاق يقـــول الإمـــام ابن قيـم الجوزيـــة

" ...فإن القلب لابد له من التعلق بمحبوب، فمن لم يكن الله وحده محبوبه و إلهه و معبوده، فلابد أن يتعبد قلبه لغيره..."(إغاثة اللهفان ص.52)

هذا الفهم يرسخ الاعتقاد بأن الأصل هو الفطرة , و الفطرة هي ولهُ القلب أي تعلقه الشديد بالله عز و جل مفطره , و إنما ينحرف سير القلب إذا أوردت عليه النفس من عالمها ما يشوش عليه سيره و يكدر أو يُسوّد مرآته..

إذا استلهمنا روح تحاليل الحكيم الترمذي ،فالغرائز الإنسانية إذا أطلق لها العنان بدون ضابط , و كل التجارب البشرية و تعلق الإنسان بنتائجها و ثمراتها ما لم توافق روح الفطرة , من شأن كل هذا أن يشوش على القلب صفاءه و بالتالي سيره , فيضل الطريق و لا يصل لهذا المحل من عظمة الله عز و جل , و بالنسبة للمسلم الذي عجز عن رياضة نفسه يكون سيره كما وصف الترمذي " ..على ثقل من نفسه و جهد من قلبه و تنغيص و تكدير من عيشه " , فكأنّ هذا العاجز عن رياضة نفسه يبصر بحاسة خفية لديه هذا المحل من عظمة الله عز و جل , و لا يتمكن من الوصول إليه لما ذكرنا من عدم صيانة قلبه عما تورد النفس عليه, فيكون في طور التمني , في حين المرتاض لنفسه يسلك طريق التحقق،

و بالنسبة لغير المسلم فيتجه قلبه أي عواطفه و أدواته الإيمانية الاعتقادية وجهات أخرى , و لا يصل قطعا لهذا المحل من عظمة الله عز و جل حسب الحكيم الترمذي...

الظالم لنفسه هو الذي يستعمل أدواته الإيمانية انطلاقا من ذاتيته أو بالأحرى من تأليهه لذاته و قدراته جازما بأن الحقيقة لا يمكن أن تنبع إلا من ذاته , فينطلق في عالم الحس و الغريزة و التجربة الآنية الوجدانية و العاطفية و الغريزية يحتجّ بأن الطريق للوصول للحقيقة لا يمكن أن يكون خارج هذا الإطار , فهو ينكر و يتنكر لمبدإ الألوهية و الربوبية من أساسه , و مهما ادعى من حرصه على الموضوعية و التجرد ,إلا أن انطلاقته الحقيقية هي تأليهه لذاته و لقدراته , بل و رفضه للاستجابة لصوت بداخله , صوت الفطرة الذي لابد و أن يلامس وجدانه و كيانه , ذاك الذي أطلق عليه " سارتر " القلق الوجودي , و "يونج" نصف الحقيقة النفسية , و "روجرز " الحقيقة الإنسانية , طرحوا السؤال و لم يتمكنوامن إيجاد الجواب, أوأنهم رفضوا سلوك الطريق المؤدي إلى الجواب الشافي و الحقيقي , لأن هذا الطريق طريق عبودية و خضوع لفاطر الإنسان و الكون , و الذي جعل أول خطوة في طريق الوصول للحقيقة هي الإذعان لعظمته و التسليم له بالألوهية , الثمن لكي يفوز العبد بكنز الإيمان و تذوق حلاوته " ألا إن سلعة الله غالية , ألا إن سلعة الله الجنة "

فبقدر ما يستهلك الإنسان طاقاته الباطنية و أدواته الإيمانية في اتجاهات كونية مخالفة لروح الفطرة بقصد التوصل للحقيقة في زعمه , بقدر ما يكون هذا الاستهلاك دليلا على مقدار نزعته الذاتية و ميوله الإلحادية..

هذه النظرة المنطلقة من الدين تحتوي حقا على أصول و منهج خاصين بالصحة النفسية , توظف معطيات الدين الأساسية و العقدية لفهم كل ما يتعلق بالإنسان: خواطره , دوافعه , علاقاته الاجتماعية , طموحه , صراعاته بل و اعتداءاته على حقوق الآخرين و ظلمه لنفسه و للناس , والمقتنع بهذه المنطلقات يجب أن يوظف هذه المعطيات بهذه الكيفية و إلا يوشك أن يوصم بالتناقض , إذ لا يعقل أن نعتقد شيئا و نتحاشى توظيفه في مظانه !...

سير القلب إلى هذا المحل في عظمة الله عز و جل إذاً هو أقرب طريق للتوصل لانسجام معطيات الفطرة مع سلوك الإنسان , و هذا الانسجام هو قمة الصحة النفسية من منظور المدرسة الحكيمية.

5- ختامـــــا نلخـــص بإيجـــــاز

المدرسة الحكيمية تعتبر مدرسة سلوكية معرفية من حيث المبدإ العام، وتتميز بالخصائص التالية:

1- تأثير الدوافع على الحالة الوجدانية عموما

2- تقسيمها للدوافع باختصار إلى: – دوافع نفسية

- دوافع قلبية

1- الدوافع النفسية يحكمها الهوى و الدوفع القلبية يحكمها العقل المتنور بنور الله..

2- تعلق الوعي الآني بمصدر الدافع و تأثر الوجدان به،و تعلق الجميع بالحالة الإيمانية الحالية..

3- نوعية الدوافع المسيطرة على الكيان تابعة لمسيرة تدرجية ارتقائية يطلق عليها الحكيم "الرياضة النفسية"..

4- المسيرة التدرجية الارتقائية سلوكية أوّلاً إذ تهدف إلى التخلي عن بعض العادات أي السلوكيات ، ثم هي معرفية إذ ينتج عن هذا التخلي تغيير في الحالة الوجدانية و على الخصوص في المدارك أي المعارف، و المدرسة المعرفية الحديثة تُركز أيضا من خلال استبياناتها و جداولها على الحالة الوجدانية للمريض بعد تخلصه من بعض الاعتقادات الخاطئة ومن خلال إنجازه "للتمارين المنزلية"، التركيز هنا على السلوك أو الاعتقاد حصرًا، و عند الحكيم على المنطلق، و السبق التاريخي للحكيم ، سبق بالتوصيف التشخيصي و بدمج معطيات روحية في المجال النفسي..

5- المدارك و المعارف الناتجة عن رياضة النفس هي "مواهب ربانية"، و هذا لب الاختلاف بين الحكيم و المدرسة السلوكية المعرفية الوضعية

فالحكيم يربط دائما عمل المرتاض لنفسه بمصدر العطاء الرباني، يؤكد على "الكسب" و هو اجتهاد العبد المضني الشاق، و هو مايطلق عليه عملية "الفطام"، و يرتب النتائج على الوهب الإلهي و يربطه بمدلول الآية الكريمة " **و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** .."0العنكبوت69) فهي إذاً **هداية**، و هي مدرسة نفسية ذات بعد إيماني اعتقادي، تركز أساسا على المنطلق العقدي أي الاعتقاد و ما يترتب عنه من نتائج وجدانية و معرفية و سلوكية..وحين يتكلم الترمذي عن الرياضة و المستويات العليا المتوخاة منها، يظهر لنا حقيقة المستويات التي هي دونها أو سابقة عليها..من باب الكناية والتلميح كما أسلفنا أعلاه...

و المدرسة الحكيمية ذات منطلق إيماني اعتقادي، و الاضطراب النفسي أو الكدر النفسي حسب روح هذه المدرسة هو **من عدم انسجام سلوك المسلم مع متطلبات العبودية**، لأن الذي لم يتمكن من رياضة نفسه يكون أسيرا لدواعي النفس الشهوية و لمتطلباتها و التي بطبيعتها لا تهدأ، أي تطالب صاحبها دائما بالمزيد،بمعنى أن الذي يريد أن يلبي لنفسه رغباتها يدخل في **مسار تصاعدي** مثلما يحدث في عالم **الإدمان**، و هو الذي عبر عنه الحكيم الترمذي بعملية "الفطام" حين شبه النفس الإنسانية بالرضيع الذي ألف ثدي أمه، وكلما ذاق حلاوة الأطعمة و الأشربة أثناء عملية الفطام الشاقة كلما عاف ذكر اللبن و توجه و ترسخ في العادات الجديدة،و هنا ننبه إلى إيجابية توظيف مثل هذه الذخائرفي

علاج المدمنين، فقد ثبت بأن العلاجات الكيمائية أو المعتمدة على البعد البيولوجي البحت لم تؤت ثمارها، و كلنا يعلم بأن المدمن له متعة نفسية ربما هي أقوى لدى بعضهم من الارتباط العضوي بمادة الإدمان، و الشق المعنوي الناتج عن الرياضة عند الحكيم يتجاوز بالذات هذه المنطقة من التعلق النفسي...

و البعد السلوكي المعرفي عند الحكيم يشتمل على شقين:

_ الشق الأول سلوكي يتعلق بتغيير العادات

_ الشق الثاني معرفي ذوقي وجداني، وهو ما يشعر به المرتاض لنفسه من أحوال إيمانية من قوتها أنها تكشف الغطاء عن أحوال سابقة تتعلق بعالم النفس..

" لأن القلب امتلأ بالأنوار و رأى شأنا عجيبا من عظمة الله عز و جل.."

" فكلما ازداد العبد معرفة و علما بربه عز و جل، استنار قلبه و صدره، و انتقص من الغفلة و من هذه الخصال السبع حتى يمتلىء صدره من عظمة الله عز و جل و جلاله، فعندها كشف الغطاء و صار يقينا"

الذي يساعد المرتاض لنفسه على التغيير السلوكي و الاستمرار على هذا التغيير أي ترسيخه في المنهج الحكيمي هو ما يحصل له من ترق معرفي ذوقي يغشى كيانه كله، من قوته أنه يزهده في متعلقاته السابقة المنطلقة أساسا من الهوى أي من الرغبات الشهوية الذاتية و الأنانية، لأن تغيير العادات مثلما عبر عنه الحكيم بعملية الفطام عملية صعبة و شاقة و مؤلمة و مُرّة المذاق، لكن حسب تحليل الحكيم الترمذي هذه المرارة مرحلية، و هي واجبة كدليل على توجه الإرادة نحو العبودية و الامتثال لله و نية التطهر، لكن سرعان ما تعقبها حلاوة وجدانية باطنية نابعة من قذف معارف في القلب من عالم الوهب أي من مصدر العطاء أي من خارج ذات و عالم الإنسان الضيق، هذه المعارف النورانية تحفز من جهة المرتاض لنفسه على المضي قدما و على الاستمرار و المثابرة في طريقه، و من جهة أخرى تساعده على الإقلاع عن عادات سيئة أو روتينية لا تحدث أي تغيير إيجابي في حياته، بل و تكرس الجمود و الانتظار العاجز..

الاختلاف الجوهري هنا بين الحكيم و المدرسة السلوكية المعرفية الغربية هو من حيث الاعتراف بهذا المصدر الغيبي، فالمدرسة الغربية ناقشت الأفكار و القوانين و الاعتقادات العميقة للإنسان و كلها أحكام تلقى جلها الإنسان في طفولته و شبابه أي خلال عراكه في هذه الحياة، و لا تفصيل تقريبا و لا مجال للتطرق للنظرة الفلسفية أو العقدية المجردة للحياة كمنحًى معرفي جدير بالدراسة بل وكمصدر للصحة النفسية أو في حال تهميشه أو تغييبه أو إنكاره كعامل مؤدّ للقلق الوجودي و ما يترتب عنه من اضطرابات نفسية....

هذا الذي يميز مدرسة الحكيم الترمذي في حقيقة الأمر، فهي مدرسة نفسية ذات منطلق إيماني، ترى بأن مجال الصحة النفسية يجب أن يركز على المنطلق

الإيماني أوّلا ، تصحيح البداية، و هو ما يطلقون عليه "الباعث" أو "الوازع" أو "داعي الله" في قلب العبد، لابدّ أن يصحو و يلزم صاحبه على الدوام، إذ لو خبا وهجه توقف السير المعنوي و توقفت بالتالي مسيرة النموّ و الترقي الروحي،و يدل من جهة أخرى على أن ميلاد هذا الباعث و خصوصا المحافظة عليه من أهم الأسس في الصحة النفسية من وجهة نظر الحكيم، و في الحقيقة من وجهة نظر كل علماء السلوك أو التزكية ، يقول الحكيم في هذا المجال:

" إن الطرق شتى، و طريق الحق مفردة، و السالكون طريق الحق أفراد، و مع أن طريق الحق مفردة فإنه تختلف وجوهه باختلاف أحوال سالكيها من اعتدال المزاج و انحرافه، و ملازمة الباعث و قوة روحانيته و ضعفها، و استقامة همته و ميلها، و صحة توجهه و سقمه.."(السلوك عند الحكيم الترمذي ص.26)...

إذاً هو سلوك و هي طريق لا عصمة لأحد ليدعي بأن الحق كله معه، بل أكثر من ذلك عندهم كلما تقدم العبد في مجال الإدراك عن الله كلما أحسّ بجهله و بأن ما أدركه إن هو إلا نقطة من بحر،و حين يتحدث الحكيم عن اعتدال المزاج و انحرافه أو عن استقامة همته و ميلها فهو يتوجه بالخطاب لهؤلاء الأفراد المتميزين!! فكيف يكون حال من دونهم؟!

و التركيز على المنطلق ليس خاصا بالحكيم، بل هو يكاد يكون قاعدة عامة عند كل علماء التزكية، يقول ابن عطاء الله السكندري في إحدى حكمه:

"من أشرقت بدايته أشرقت نهايته"

إشراق النهاية هو ما يقارب ما عبر عنه الحكيم من قذف العلوم و المعارف في القلب، و هو ما عبر عنه ابن عطاء الله أيضا بقوله:" الوصول إلى الله" و يوضح ليزيل الخلط الذي يمكن أن يطرأ على البال من توهم الجهة أو الكدح الزمني للوصول لمحطة معينة، لأننا في الحقيقة في عالم المعاملة مع من" ليس كمثله شيء" ،يقول ابن عطاء الله:

" وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به وإلاّ فجلّ ربنا أن يتصل به شيء أو أن يتصل هو بشيء"، و يقول أيضا :

" لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ،إذ لا مسافة بينك و بينه حتى تطويها رحلتك و لا قطيعة بينك و بينه حتى تمحوها وصلتك"..

إذاً هو سير معنوي يتعدى البعد الثلاثي بل كل الأبعاد، في نهايته هو عالم ذوقي عبّر عنه علماء السلوك بعبارات مختلفة، لكن تصب كلها في مصب واحد، لأنه كما قال الحكيم الترمذي" الطرق شتى و طريق الحق مفردة".

يلاحظ القارىء الكريم أنني أحاول أن أوقف القلم عن الانسياب و يأبى إلا أن يسترسل و يفتح آفاقا شتى نظراً لغزارة الموضوع و لمتعلقاته المختلفة، و الحقيقة أنني في نهاية هذا العرض المتواضع لا أدعي أنني وفيت هذا الطود الشامخ من سلفنا الصالح حقه، و هي دعوة صادقة للمتخصصين في الميدان النفسي و الاجتماعي للانكباب على هذا الإرث الضخم و الجليل و يكملوا ما اضطررت لإيجازه لضرورة البحث و خشية الإطالة،وكما يلاحظ القارىءأيضا أنني انتهجت أسلوبا يحاكي أسلوب الشيخ الحكيم، و ذاك في نظري يقرب الفهم أكثر لمن لم يتعودوا على قراءة كتب السلف و لغتهم الخاصة و المتميزة ، و كذا لبيان أن هذا الأسلوب يطمح لمغازلة القلوب الباحثة عن الحق و المعنى، و حسبي أنني ساهمت بوضع لبنة متواضعة في هذا الصرح المهم و هو مجال التأصيل، و على الله قصد السبيل، و الحمد لله رب العالمين و صل اللهم على سيدنا محمد و آله و صحبه أجمعين

لجنة البحث والدراسة في التراث النفسي: العدد 1

إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف 2013

د.إدريس عبد السلام شاهدي الوزاني

- تاريخ الميلاد: **1957-07-10** بفاس – المغرب.
- الاختصاص: الطب النفسي

- الاهتمامات العلمية:

- – الثانوية العامة يونيه 1976.
- دكتوراه في الطب العام 1987 جامعة محمد الخامس الرباط المغرب.
- دكتوراه في الطب النفسي 1994 بجامعة ليل بفرنسا.
- شهادة الخبرة القانونية و النفسية و الاجتماعية من جامعة مونبوليي بفرنسا1994.
- شهادة معالج معتمد بالعلاج التنويمي الإريكسوني من معهد"ميلتون إريكسون" بباريس فرنسا.

- الممارسات المهنية:

- عملت بمستشفيات جامعية و عامة و نفسية تخصصية بفرنسا من1987 إلى 1997
- منذ 1997 أعمل كاستشاري بالمدينة المنورة بمستشفى الصحة النفسية و عضو في اللجنة الجنائية.

- المؤلفات :

- له مؤلفات باللغة الفرنسية تتعلق بمسيرة الهوية وإشكالية الازدواجية اللغوية عند أبناء المهاجرين المغاربيين بفرنسا بالمضاعفات النفسية و الشرعية لمرض الصرع.كما نشرت له بعض الأبحاث في مجلات عربية و دولية..
- المؤلفات باللغة العربية:

1- أسس العلاج النفسي دراسة مقارنة بين الإسلام و أهم الاتجاهات في العلاج النفسي 1987.

2- العلاج النفسي و خطورة المنطلق" الأبعاد النفسية لعلم السلوك الإسلامي2008

3- جولة عاشق مع إرشاد المريد

و للباحث اهتمام خاص بعلم السلوك و بتوضيح معالم مدرسته مؤملا الإدلاء بدلوه في حركة التأصيل النامية..

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف 2013